الفكر السياسي عند الإمام الباقر عليه السلام - قراءة سياسية معاصرة

المدرس المساعد
ميثاق مناحي العيساوي
جمهورية العراق
جامعة كربلاء – مركز الدراسات الاستراتيجية
al.esawe@yahoo.com

الملخص:

تناول البحث فكر الإمام الباقر عليه السلام السياسي، من حيث حياته وعصره وأثرهما على نمط التفكير السياسي للإمام عليه السلام، وموقفه من السلطة القائمة آنذاك، وكذلك موقفه من الإمامة بشكل عام ودوره في أحياء الجوانب العلمية والثقافية والاجتماعية والاقتصادية آبان العهد الاموي، وتصديه للأحزاب الأموية والزبيرية والحركات الفكرية كالخوارج والمعتزلة والمرجئة وغيرهم، فضلاً عن ذلك، فقد تناول البحث الإصلاح السياسي والاقتصادي والفكري والاجتماعي والاخلاقي الموازي للسلطة الأموية بالنسبة للإمام الباقر عليه السلام، فضلاً عن ذلك، فقد خصص مطلب في المبحث الثالث عن الرؤية السياسية المعاصرة لفكر الإمام الباقر عليه السلام في إصلاح واقع الدولة العراقية. وانتهى البحث بالخاتمة واهم الاستنتاجات التي توصل لها الباحث من أجل إعادة قراءة فكر الإمام عليه السلام بطريقة معاصرة وملائمة للتطور السياسي والاجتماعي والعلمي الحاصل في البلدان الإسلامية، لاسيما الشيعية منها.

المقدمة:

يعد عصر الإمام الباقر عليه السلام من أكثر العصور الإسلامية تقلباً سواء كان ذلك على المستوى السياسي أو غيره من المستويات، فقد مّثل عصر الإمام عليه السلام مرحلة متقدمة من مراحل الصراع السياسي الأموي والحروب وانتشار الفتن، فضلاً عن التقلبات السياسية والاجتماعية والاقتصادية والفكرية. وكان لهذا الصراع تأثير كبير على فكر أهل البيت عليهم السلام بشكل عام، وفكرهم السياسي بشكل خاص، لا سيما في عصر الإمام الباقر عليه السلام لأنهم (أهل البيت) كانوا يمثلون الخطر الحقيقي على السلطة الأموية آنذاك بما يملكونه من وعي وعلم ممتد لخط النبوة والوحي والرسالة الإسلامية. وقد تركت تلك الطبيعة الجدلية للبيئة

السياسية السائدة آنذاك أثرها في طبيعة التفكير السياسي للإمام الباقر عليه السلام، فعلى الرغم من المساحة المحدودة للتفكير السياسي للإمام الباقر آنذاك، إلا أنه استطاع أن يخط بعض الخطوط في ميدان الفكر السياسي الشيعي، وقد مثلت تحركاته ومدارسه، لا سيما في الجانب الإصلاحي في إصلاح واقع الامة الإسلامية بجوانبها المختلفة دور كبير في نضوج العقل السياسي الإسلامي "الشيعي" ضد السلطة الأموية.

أهمية البحث:

تكمن أهمية البحث في الدور السياسي والإصلاحي الذي قام به الإمام الباقر عليه السلام في إصلاح الواقع الأموي آنذاك، وتطوير نمط التفكير السياسي الشيعي فيما يخص موقفه من السلطات الديكتاتورية. إذ أسس الإمام عليه السلام قاعدة كبيرة للعقل السياسي الإسلامي، واعطى تصور واضح للإمامة بمفهومها (السياسي والديني) ودور الإمام، فضلاً عن ذلك، فأن هذه الأسس التي وضعها الإمام عليه السلام اصبحت مرجعاً فكريا في جوانبها المختلفة ومن الممكن أن يستفيد منها المواطن العراقي، والأحزاب السياسية العراقية في بناء الدولة العراقية المعاصرة، وإصلاح واقعها السياسي والاقتصادي.

فرضية البحث: ينطلق البحث من فرضية أساسية مفادها (إن الفكر السياسي للإمام الباقر عليه السلام، على الرغم من محدوديته الفكرية في هذا المجال ومحاربته من قبل الدولة الأموية، إلا أنه مثل قاعدة واسعة للفكر السياسي الشيعي فيما بعد، لاسيما في مرحلة غياب الإمام المعصوم). إذا كيف يمكننا أن نفهم طبيعة تفكير الإمام الباقر عليه السلام السياسي بطريقة معاصرة نستطيع من خلالها الموائمة بين فكر الإمام أو فكر آل البيت بشكل عام ومستجدات العقل البشري المعاصر أو بين الأصالة والتجديد؟.

اشكالية البحث:

تكمن الاشكالية الاساسية للبحث في طبيعة الانتاج الفكري للإمام الباقر عليه السلام. فالإمام لم يهتم بالشؤون السياسية في تلك العصور ولم يأخذ الجانب السياسي الكثير من اهتماماته العلمية والفكرية، ولهذا يُشكل البعض، بأن الإمام الباقر عليه السلام لم يكن له انتاج سياسي واضح، طور من خلاله الفكر السياسي الشيعي وفكر أهل البيت عليهم السلام على وجه التحديد. ولهذا جاء بحثنا ليساهم في معالجة هذه الاشكالية من خلال تناولنا للفكر السياسي عند

الإمام الباقر عليه السلام.

أهداف البحث:

يحاول البحث تحقيق هدفين:

١- ابراز دور الإمام الباقر عليه السلام من خلال تسليط الضوء على ابرز اعماله الفكرية والعلمية وحنكته في مجاراة الجبروت الأموي والحفاظ على التراث الفكري للرسول محمد صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام.

٢- اظهار فكر الإمام السياسي فيما يتعلق بالسلطة والإمامة ودور الإمام، ودوره الإصلاحي في الميدان السياسي والاجتماعي والاقتصادي والفكري.

منهجية البحث:

اقتضت المنهجية العلمية للبحث بضرورة اتباع بعض المناهج العلمية للتأكيد من صحة الفرضية، فقد اعتمد البحث على المنهج التاريخي بشكل كبير، فضلاً عن المنهج التحليلي وبعض وسائل المناهج العلمية الأخرى.

هيكلية البحث:

تم تقسيم البحث إلى ثلاث مباحث. تناول المبحث الأول حياة الإمام الباقر عليه السلام وعصرة، إذ تناول المطلب الأول حياة الإمام الباقر عليه السلام وتناول المطلب الثاني عصر الإمام عليه السلام ودوره العلمي والثقافي والسياسي والاجتماعي والاقتصادي، فضلاً عن دوره في مواجهة الاحبار والتصدي للمدارس الفكرية المتمثلة في المعتزلة والمرجئة والاحزاب الأموية والزبيرية.

أما المبحث الثاني فقد خصص لدراسة الإمامة عند الإمام الباقر عليه السلام وموقفه من السلطة، فتناول المطلب الأول الإمامة عند الإمام الباقر عليه السلام وتم التركيز على أهمية الإمامة ودورها في فكر الإمام الباقر من خلال توضيحه لأبرز جوانب الإمامة من حيث الحاجة للإمام ووجوب معرفته وطاعته، وحقه على الناس وعظمة وجوده بين الناس. اما المطلب الثاني فقد خصص لدراسة موقف الإمام من السلطة وآليات معرفة الإمام.

أما المبحث الثالث فقد تناولنا فيه الإصلاح في فكر الإمام الباقر؛ وذلك من خلال

خمسة مطالب، تناول المطلب الأول الإصلاح السياسي أما المطلب الثاني فقد تناول الإصلاح الاقتصادي في حين تناول المطلب الثالث الإصلاح الفكريّ والعقائديّ اما المطلب الرابع فقد تناول الإصلاح الاجتماعيّ والأخلاقيّ، وأخيراً المطلب الخامس الذي جاء بعنوان قراءة سياسية معاصرة في فكر الإمام الباقر عليه السلام، فضلاً عن ذلك، قد انتهى البحث بالخاتمة واهم الاستنتاجات التي توصل إليها الباحث من أجل الاستفادة من فكر الإمام وإعادته إلى الوجود.

المبحث الأول

حياة الإمام الباقر وعصره

يُعد الإمام الباقر واحد من أفذاذ السلسلة المحمدية المعصومة، فأبوه سيد العابدين علي بن الحسين حليف المحراب والدعاء والابتهال، وجده الحسين شهيد الإصلاح والثورة على طغاة بني أمية وهو الذي سماه جده رسول اللّه بـ (محمد الباقر) وأخبر عن توسعه في العلم وتبحره في دقائقه. إنّ التفوق العلمي، هو أحد الظواهر البارزة في حياة إمامنا الباقر فقد كان كما قال الصادق الأمين عليه السلام قد بقر العلم وعرف أصله واستنبط فرعه، من هنا تربع على عرش العلم في زمانه بكل ما حوى من حقول المعرفة، حتى اعترف معاصروه بتفوقه وسموه في منار العلم. وإذا كان الإمام الباقر قد نأى بنفسه عن التدخل في معترك السياسة، فقد نشط لاستكمال جهود سلفه المعصومين في مجال نشر معارف الإسلام، وتفرغ للعلم، فأغنى الواقع الإسلامي علماً ومعرفة، من خلال مدرسة علمية مفتوحة على الواقع الإسلامي، في فترة شهدت تباشير الدعوة العباسية، وعاش فيها المسلمون صراعاً عنيفاً انتهى بسقوط العهد الأموي وبداية العهد العباسي وخط كثير من الخطوط للفكر السياسي الإسلامي.

المطلب الأول

حياة الإمام الباقر

هو محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف القرشي أبو جعفر "الباقر" أمُّه أم عبد الله بنت الحسن بن علي بن أبي طالب. لُقِّب بالباقر لنبوغه في العلم وتوسعه فيه كما قال ابن منظور في "لسان العرب" وكان يقال لمحمد بن علي بن الحسين بن علي "الباقر"؛ لأنَّه بقر العلم وعرف أَصله واستنبط فرعه، وتَبقَّر في

العلم وأصل البقْر الشقّ والفتح والتوسعة، بَقَرْتُ الشيءَ بَقْراً فتحته ووسعته[١]. ولد الإمام الباقر في الأول من رجب سنة ٥٧هـ في المدينة المنورة، وهو خامس أئمة أهل البيت عليهم السلام، أبوه الإمام زين العابدين عليه السلام وامه فاطمة من ذرية الإمام الحسن المجتبى عليه السلام. وعلى هذا فأن الإمام الباقر هو أول إمام ينحدر من رسول الله أباً وأماً. عاش مع والده السجاد عليه السلام خمساً وثلاثين سنة، وعاش بعد والده ثمانية عشر عاماً وهي مدة إمامته وانصرف فيها إلى العلوم والمعرفة الإسلامية. وسمي بالباقر من بقر الأرض أي شقها وأخرج مخبآتها، فهو قد أخرج كنوز العلم والمعرفة، فسماه الناس الباقر، وله ألقاب أخرى تدل على صفاته الأخلاقية منها الشاكر والهادي[٢].

عاش الإمام الباقر خلال الحقبة الأموية التي تميزت بالعنف والقمع، وانتشار مظاهر الجور والظلم والفساد، فقد امتدت حياته من سنة ٥٧ إلى سنة ١١٤هـ، فأدرك جده الحسين نحو أربعة أعوام، وهي الفترة الممتدة من غرة رجب سنة ٥٧ إلى المحرم سنة ٦١هـ، إذ شهادة جده الحسين عليه السلام فكانت بدايات نشأته مع واقعة الطف الأليمة، التي شهد كل فصولها، وما جرى فيها من مشاهد القتل والترويع والسبي والأسر بشكل لم تعرفه الجريمة البشرية من قبل. وعاش أبو جعفر الباقر في ظلّ إمامة أبيه علي زين العابدين من سنة ٦١ إلى ٩٥هـ، أي نحو أربع وثلاثين سنة وأشهُر، وقام بأعباء الإمامة مقام أبيه وهو ابن ثمان وثلاثين سنة، من سنة ٩٥هـ إلى شهادته في سابع ذي الحجة سنة١١٤هـ، أي نحو تسع عشرة سنة. وشهد خلال هذه الفترة فصولاً أخرى من مشاهد الفوضى والجريمة والبغي الأموي، كوقعة الحرة بأهل المدينة، وغزو مكة المكرمة، وعاصر فترة نشوء الثورات والحركات المعارضة للجبروت الأموي، كثورة المدينة المنورة، وابن الزبير، والمختار، وثورة القراء، والتوابين، وابن الأشعث، وبدايات تحرك الشهيد زيد بن علي وتباشير الدعوة العباسية[٣].

لقد توفرت في شخصية الإمام أبي جعفر جميع الصفات الكريمة التي أهّلته لزعامة هذه الأمة. إذ تميّز هذا الإمام العظيم بمواهبه الروحية والعقلية العظيمة وفضائله النفسية والأخلاقية السامية ممّا جعل صورته صورة متميّزة من بين العظماء والمصلحين، كما تميّز بحسبه الوضّاح، بكل ما يمكن أن يسمو به هذا الإنسان. ولقد احتاط النبي كأشد ما يكون الاحتياط في شأن أمته، ولم يرض أن تكون في ذيل قافلة الأمم والشعوب، فقد أراد لها العزّة والكرامة، وأراد أن تكون خير أمة أخرجت للناس، فأولى مسألة الخلافة والإمامة

المزيد من اهتمامه، ونادى بها أكثر من أية قضية أخرى من القضايا الدينية؛ لأنها القاعدة الصلبة لتطور أية أمة في مجالاتها الفكرية والاجتماعية والسياسية، وقد خصّ بها الأئمة الطاهرين من أهل بيته الذين لم يخضعوا في أي حال من الأحوال لأية نزعة مادية، وإنما آثروا طاعة الله ومصلحة الأمة على شيء. وكان الإمام محمّد بن علي الباقر جامعا للكمالات الإنسانية في سيرته وسلوكه، فكان أهلاً للإمامة الكبرى بعد أبيه زين العابدين(٤).

كان الإمام الباقر شخصية علمية منفتحة على واقع المسؤولية، فقد تلمذ له ونهل من علمه جيل من أعلام معاصريه من شتى المذاهب والاتجاهات، واستطاع إعداد وتربية النخبة الصالحة والصفوة من فقهاء وعلماء وثقات أهل البيت المخلصين، فنهض لإرساء قاعدة المدرسة الفقهية المستندة على أُسس الإسلام المتينة، في وقت بدأ الحكام بترويج فقه كل من هب ودب من وعاظ السلاطين، فكان سفينة النجاة التي حفظت الشريعة المقدسة من أمواج الضلال والانحراف، والنور الذي أشرق به فجر العلم. وكان لتلك المدرسة ميزة عن كل المدارس التي نشأت إبان تلك المرحلة وما بعدها، وهي الانفتاح على الواقع الإسلامي واستيعاب كل ما فيه من تيارات فكرية ومدارس مخالفة ومناقشتها بكل هدوء من غير أن تصادر الأفكار، أو تلغي الآخر، وبذلك قدمت لنا درساً في وحدة الثقافة والفكر. ولتلك المدرسة عطاء وافر وإنجازات علمية رائعة، لها الأثر في إغناء المعرفة الإسلامية في شتى فنون العلم وحقول المعرفة، كعلوم القرآن والحديث والفقه وأُصوله والعقائد والتاريخ والطب وغيرها. واستطاع الإمام الباقر عليه السلام ملاحقة القضايا الفكرية التي تمّثل تحديات الفكر آنذاك، سيما ما طرأ على الواقع الإسلامي من بدع وشبهات ومفاهيم باطلة كالغلو والإرجاء والجبر والتفويض وغيرها، وله احتجاجات مع أصحاب الفكر والاعتقادات المخالفة، تركت بصماتها إلى اليوم، إذ أجاب الإمام عن الكثير من الأسئلة التي قد تكون جواباً على أكثر من سؤال يدور في أذهان المعاصرين. وترك لنا الإمام الباقر عليه السلام ثروة فكرية هائلة تهدف إلى تقويم السلوك، وتدعو إلى الأخلاق الحميدة والصفات الكريمة، تتجّلى في الحكم والمواعظ والوصايا والرسائل التربوية. أما حين نتناول دراسة البعد الروحي من شخصية الإمام الباقر نجده كآبائه الهداة الميامين، مثلاً أعلى في العبادة والورع والزهد والتقوى والتواضع والحلم والجود والهيبة والوقار. من هنا كان ولده الصادق يقول: "حدثني أبي، وكان خير محمدي يومئذ على وجه الأرض"(٥). تنقسم حياة الإمام محمد

الباقر على غرار سائر الأئمة المعصومين إلى مرحلتين متميزتين :

المرحلة الأولى: مرحلة ما قبل التصدي للقيادة الشرعية العامة والتي تشمل القيادة الفكرية والسياسية معا وهي مرحلة الولادة والنشأة حتى استشهاد أبيه وقد عاش الإمام محمد الباقر عليه السلام في هذه المرحلة مع جدّه وأبيه فقضى مع جدّه الحسين فترة قصيرة جدا لا تزيد على خمس سنين في أكثر التقادير، ولا تقل عن ثلاث سنين. وعاش مع أبيه الإمام زين العابدين مدة تقرب من اربع وثلاثين سنة، وكانت سنيناً عجافاً؛ إذ كانت الدولة الأموية في ذروة بطشها وجبروتها، وكان الإمام الباقر في هذه المدة رهن إشارة أبيه زين العابدين في جميع مواقفه ونشاطاته. وقد عاصر فيها كلا من معاوية بن أبي سفيان ويزيد بن معاوية ومعاوية ابن يزيد ومروان بن الحكم وعبد الله بن الزبير وعبد الملك بن مروان والشطر الأكبر من حكم الوليد بن عبد الملك.

المرحلة الثانية: تبدأ باستشهاد أبيه في الخامس والعشرين من محرم الحرام سنة (٩٥ هـ) وهي مرحلة التصدي لمسؤولية القيادة الروحية والفكرية والسياسية العامة وهي الإمامة الشرعية حسب مدرسة أهل البيت عليهم السلام وهي لا تنحصر في القيادة الروحية فقط كما لا تقتصر على القيادة السياسية بمعنى مزاولة الحكم وإدارة الدولة الإسلامية. واستغرقت هذه المرحلة ما يقرب من تسعة عشر عاماً، واصل فيها مسيرة الأئمة الهداة من قبله مستلهماً من أجداده الطاهرين وعلومهم والعلوم التي حباه الله بها الأسلوب الصحيح لتحقيق أهداف الرسالة المحمدية. واستطاع هذا الإمام العظيم خلال تلك الأعوام أن يقدّم للأمة معالم مدرسة أهل البيت عليهم السلام في جميع مجالات الحياة ويربي عدة أجيال من الفقهاء والرواة ويبني القاعدة الصلبة من الجماعة الصالحة التي تتبنى خط أهل البيت الرسالي السليم وتسعى جاهدة لتحقيق أهدافهم المثلى. وقد عاصر في هذه المرحلة الأيام الأخيرة من حكم الوليد بن عبد الملك وسليمان بن عبد الملك وعمر بن عبد العزيز ويزيد بن عبد الملك وشطرا من حكم هشام بن عبد الملك واستشهد في حكم هشام، وعلى يد أحد عمّاله الظالمين. وأقام الإمام طيلة حياته في المدينة المنورة، فلم يبرحها إلى بلد آخر، وقد كان فيها المعلم الأول، والرائد الأكبر للحركة العلمية والثقافية، وقد اتخذ الجامع النبوي مدرسة له فكان يلقي في رحابه بحوثه على تلاميذه. وقد تخرجت من مدرسة هذا الإمام العملاق مجموعة من العلماء الكبار الذين جابوا شرق الأرض وغربها ناشرين فيها العلم والمعرفة وطأطأت لشخصياتهم

المتفوقة الأمة الإسلامية بشتى قطاعاتها(٦).

وقد مر معنا أن مراحل حياة الأئمة عليهم السلام يمكن تقسيمها إلى ثلاث مراحل، وقد جمع بعض المراحل جهود الأئمة السجاد، والباقر، وقسم من حياة الصادق عليهم السلام والعوامل التي ميزت هذه المرحلة هي:

أ - انتشار الخوف في كافة المناطق الإسلامية خصوصاً بعد واقعة الحرة.

ب - الانحطاط الفكري الذي كان يعمّ أكثر الناس في العالم الإسلامي وهذا كان نتيجة للابتعاد عن التعاليم الدينية خلال سنوات طويلة.

ت - الفساد السياسي المتفشي بين الحكام سواء في المستوى النظري أو العملي.

في ظل هذه العوامل بدء الإمام السجاد عليه السلام بالعمل المتواصل والدؤوب كما مر معنا، وأكمل ابنه الإمام الباقر عليه السلام ولكن في زمنه كان الوضع قد تحسن عما كان عليه وذلك بفضل جهود الإمام زين العابدين عليه السلام ولكن ما كان يميز عصر الإمام هو أن الناس لم يعودوا متصفين بعدم الاكتراث وعدم الولاء لأهل البيت عليهم السلام كما كانوا عليه.

لقد ترك الإمام عليه السلام ثروة فكرية هائلة تعد من ذخائر الفكر الإسلامي ومن مناجم الثروات العلمية في الأرض وليس من المستطاع تسجيل جميع ما أثر عنه من العلوم والمعارف فأن ذلك يستدعي وضع عدة مجلدات. إن التاريخ لم يعرف الإمام الباقر عليه السلام كمحمد الباقر، قد كرس حياته كلها لنشر العلم وأذاعته بين الناس، فكان فيما يقول الرواة "قد اقام في يثرب سادنا أمينا كالجبل أو كالبحر وهو يغذي رجال الفكر ورواد العلم بفقهه وعلمه الذي يحمل عناصر التقدم وعناصر الحياة لا لهذه الأمة فحسب وإنما للناس جميعاً". وكان الإمام من عمالقة الفكر والعلم في الإسلام فقد كان من أبرز أئمة المسلمين فيما أوتي من عظيم الاخلاق والتجرد من كل نزعة مادية أو أنانية، فكان في سلوكه يمثل روح الإسلام وفكره وانطلاقه في هداية الناس وتهذيب أخلاقهم(٧).

لقد نهل الإمام محمد بن علي الباقر العلوم والمعارف من هذا الوالد العظيم حتى فاق وأبدع في كل العلوم، فكان كما شهد له بذلك جدّه رسول الله صلى الله عليه وآله إذ لقّبه بالباقر قائلا: إنّه يقر العلم بقراً، عندما بشّر المسلمين بولادته وبدوره الفاعل في إحياء علوم الشريعة وفي

عصر كانت قد عصفت العواصف بالأمة الإسلامية إثر الفتوح المتتالية والتمازج الحضاري والتبادل الثقافي الذي طال الأمة الإسلامية وهي في عنفوان حركتها الثقافية والعلمية التي فجّرها الإسلام في وجودها، وكانت قد حُرمت من الارتواء من معين الرسالة الفيّاض الذي تجسّد في أهل البيت. لقد عاش الإمام محمّد الباقر طيلة حياته في المدينة يفيض من علمه على الأمة المسلمة، ويرعى شؤون الجماعة الصالحة التي بذر بذرتها رسول الله وربّاها الإمام علي ثمّ الإمامان الحسن والحسين كما غذّاها من بعدهم أبوه علي بن الحسين مقدّما لها كل مقوّمات تكاملها وأسباب رشدها وسموّها. لقد عانى الإمام الباقر من ظلم الأمويين منذ أن ولد وحتى استشهد، ما عدا فترة قصيرة جدّاً هي مدّة خلافة عمر بن عبد العزيز التي ناهزت السنتين والنصف. فعاصر أشد أدوار الظلم الأموي، كما أشرف على أفول هذا التيار الجاهلي وتجرّع من قصص الآلام ما ينفرد به مثله وعيا وعظمة وكمالا. ولكنه استطاع أن يربي أعدادا كثيرة من الفقهاء والعلماء والمفسّرين، إذ كان المسلمون يقصدونه من شتى بقاع العالم الإسلامي وقد دانوا له بالفضل بشكل لا نظير له، ولم يعش منعزلاً عن أحداث الساحة الإسلامية وإنّما ساهم بشكل ايجابي في توعية الجماهير وتحريك ضمائرها وسعى لرفع شأنها وإحياء كرامتها بالبذل المادي والعطاء المعنوي كآبائه الكرام وأجداده العظام ولم يقصر عنهم عبادة وتقوى وصبرا وإخلاصا فكان قدوة شامخة للجيل الذي عاصره ولكل الأجيال التي تلته(٨). كان الحلم من أبرز صفات الإمام أبي جعفر فقد أجمع المؤرخون على أنه لم يسيء إلى من ظلمه واعتدى عليه، وإنما كان يقابله بالبر والمعروف، ويعامله بالصفح والإحسان. وقد ازدهرت الحياة الفكرية والعلمية في الإسلام ذا الإمام العظيم الذي التقت فيه عناصر الشخصيّة من السبطين الحسن والحسين عليهما السلام وامتزجت به تلك الأصول الكريمة والأصلاب الشامخة، والأرحام المطهّرة، التي تفرّع منها.

كان للإمام الباقر دور بارز وهو في ظل أبيه في حركته لتأسيس صرح العلم والمعرفة الإسلامية، إذ كان يحضر المحافل العامة ليحدّث الناس ويرشدهم، كما كان يفسّر القرآن ويعلّم الناس الأحاديث النبويّة الشريفة ويثقّفهم بالسيرة النبويّة المباركة.

انتقل عليه السلام إلى رضوان بارئه بالحميمة من الشراة، ثم نقل إلى بقيع المدينة يوم الاثنين السابع من ذي الحجة في ملك هشام بن عبد الملك سنة ١١٤هـ وعمره يومئذ سبع وخمسون سنة(٩).

المطلب الثاني

عصره الإمام الباقر ودوره

إن البحث في الفترة الزمنية التي عاصرها الامام عليه السلام مهمة جداً في ضروريات البحث المنهجي؛ لأنها تصور الحياة الفكرية والاجتماعية والسياسية وطريقة تأثيرها على التفكير السياسي بالنسبة للإمام. إذ يعد العصر الأموي من اشد العصور الاسلامية حساسية، فقد ابتلى فيه المؤمنون وارهقوا ارهاقا شديداً. لقد كان ابو جعفر في غضون الصبا، فانقرضت دولة بني سفيان التي أسسها معاوية، وانتهت بهلاك ولده يزيد الذي جهد على إذلال المسلمين وإرغامهم على ما يكرهون، وقد كانت أيامه من أحلك الليالي التي مرت على العالم الاسلامي، فقد عانوا إلواناً مرهقة من الاحداث والخطوب أغرقتهم في المآسي والآلام. وقد تشكلت بعد سقوط دولة بني سفيان دولة بني مروان. وكان لهاتين الدولتين أثر كبير في التفكير السياسي والاجتماعي للإمام الباقر عليه السلام.

كان عصر الإمام من ادق العصور في الإسلام فقد كانت الحياة فيه بشعة شديدة الظلام ومرهقة كأشد ما يكون الارهاق، فقد تفجرت البلاد الاسلامية ببركان من الثورات كانت نتيجة لسوء السياسة الاموية التي لم تضع نصب أعينها مصلحة الشعوب الإسلامية، وإنما راحت تتصرف بوحي من رغابتها الخاصة من دون أن تولي أي اهتمام بمصالح الأمة، وأنفقتها على شهواتها وملاذها، واستبدت كأشر ما يكون الاستبداد في جميع شؤونها. ولا بد لنا أن نذكر الحكومات التي عاصرها الإمام، ونعرض الاحداث السياسية التي جرت في ذلك العصر، ويجب أن نلاحظها بدقة أمعان فهي مما تمس الحياة الاجتماعية والفكرية في ذلك العصر الذي نشأ فيه الإمام، ومن الطبيعي أن الباحث الذي يهمل ذلك، فأنه من غير الممكن أن يتوصل إلى دراسة الشخصية التي يبحث عنها أو يهتدي إلى فهمها حسب الدراسات الحديثة(١٠).

أولاً: الجانب الثقافي

مرت الحياة الثقافية في عصر الإمام الباقر عليه السلام بجمود وخمد وكانت ضحلة للغاية؛ لأن معظم الناس من حكام ومحكومين ابتعدوا عن الأخلاق النبيلة والمثل العليا التي جاء بها الإسلام، وعادوا إلى جاهليتهم الأولى من عصبية قبلية وتفاخر بالآباء والأنساب. وقد لمسنا ذلك من خلال الشعراء الذين تسابقوا على أبواب السلطان للمديح والهجاء. وإذا قلبنا

صفحات الأدب في تلك الفترة وجدنا سوقاً رائجة لهذين الضربين من الشعر. نلحظ ذلك بصورة واضحة في شعر المثلث الأموي جرير والأخطل والفرزدق. فأكثر ما أثر عنهم من الشعر قد كان في هذا الموضوع. ولا يخفى أنه كان لكل حزب شاعر أو شعراء يشيدون بمآثر حزبهم ويقومون بواجب الدفاع ضد الحزب الآخر. فكما شاد الأخطل الشاعر النصراني، بمآثر الدولة الأموية والحكام الأمويين قام الكميت بن زيد، شاعر العلويين، فأشاد بمناقب قومه من مضر وفضلهم على القحطانيين. إن السياسة الأموية كانت العامل الأكبر في إثارة الخلافات العشائرية، وتقسيم المجتمع إلى نزاري وقحطاني، يريدون بذلك أن ينسوه الإسلام رسالة الوحدة والعزة؛ وانتهى الأمر إلى أن أثار بذلك فتنة جاهلية بين القبائل، مما كان له تأثير هام في زعزعة السياسة الأموية والإطاحة بالحكم الأموي. كل قبيلة أخذت تفتخر على الأخرى وتدلي بمناقبها ومكارمها، وتنتقص القبيلة المعادية حتى اتسع العداء بينها شمل سكان القرى والبادية. فالعصبية القبلية أفسدت قلوبهم وعرى الوحدة بين القبيلتين والأسرتين تمزق وانهار. وهذا ما دعا محمد الجعدي آخر ملوك بني أمية التعصب للنزاريين، مما سبب انحراف اليمانيين عن بني أمية وانضمامهم إلى الدعوة العباسية إبان تحركها ضد الحكم الأموي.

ثانياً: الجانب السياسي

في عصر الإمام وبعد التنازع الداخلي والعصبية القبلية المدمرة، أصبحت الحياة السياسية في ذلك العصر وضيعة وبشعة للغاية، فالفتن والاضطرابات عمت بين الناس في البلاد، وبدأت أحداث رهيبة ومفجعة أدت إلى فقدان الأمن وانتشار الخوف. ثم تطورت هذه الأحداث فقامت ثورات دامية ذهب ضحيتها آلاف الأبرياء وهذا بلا ريب نتيجة السياسة الأموية الخاطئة التي كان كل همها تحقيق أهدافها الخاصة ومآربها الشخصية بعيداً عن مصالح شعوبها العامة. نتج عن ذلك وجود أحزاب سياسية كل منها يسعى لتحقيق غاياته ونشر مبادئه التي تتعارض مع الأحزاب الأخرى. سار معظم هذه الأحزاب في منعطفات خاصة مستخدمة بذلك جميع الطرق الدبلوماسية دون أن تعنى بمصلحة الأمة. وقد حدث صراع حزبي عنيف ساده القلق والقسوة والاضطراب. ومن هذه الأحزاب التي برزت على الساحة(١١):

١. الحزب الأموي

اتبع الأمويين شتى ألوان الخداع والدهاء والتضليل في الوصول إلى السلطة. من هذه

الأساليب الخداعة نذكر قصة (قميص عثمان) التي ما زالت على الألسنة مثلاً سائراً حتى اليوم. اتخذوا من دم عثمان الذي سفكته القوى الشعبية شعاراً لهم لنيل مآربهم السياسية فأوهموا الناس بأكاذيبهم وأقاموا الدنيا وأقعدوها من خلال هذا الموضوع، في حين أنهم هم الذين خذلوه حينما أحاط به الثوار مطالبين الخليفة بالعدالة الاجتماعية وإيقاف هدر أموال المسلمين بالباطل. وقد بقي أياماً محاصراً على مرأى من جميع الأمويين ومسمعهم، فلماذا لم يهبوا لنجدته ويخلصوه قبل أن يجهز عليه الثوار. فبعد أن قتل الخليفة بدأ الأمويون يطالبون بدعم عثمان وذلك للاستيلاء على كرسي الحكم والظفر بخيرات البلاد وأموال بيت مال المسلمين فاعتمدوا لذلك سياسة الملوك الظالمين مقلدين القياصرة والأكاسرة بعيدين كل البعد عن مبادئ الدين الإسلامي العادل والقويم. فكان همهم الدنيا بمباهجها وأفراحها وملذاتها معتمدين سياسة الترغيب والترهيب.

٢. الحزب الزبيري

يرى هذا الحزب أن أسرة الزبير هي أولى من غيرها بالحكم، ويأتي على رأس هذه الأسرة عبد الله بن الزبير، فأمه صفية عمة النبي صلى الله عليه وآله وكان أحد المرشحين السنة للخلافة حسب برنامج الشورى الذي وضعه عمر بن الخطاب، فهو إذن أقرب من غيره من الرسول وأحق بالخلافة. ومن أبرز دعاة هذا الحزب الشاعر عبيد الله بن قيس الريات، مدح الزبيريين وهجا خصومهم.

٣. الخوارج

آمن الخوارج بالمساواة المطلقة بين المسلمين وأن أمارة المؤمنين ليست من وجهة نظرهم مشروطة بشرط أو مقصورة على أسرة بعينها أو قبيلة من القبائل العربية. كما آمنوا بضرورة الثورة على كل حكم قائم في البلاد الإسلامية إذا لم يحمل مبادئهم وأفكارهم. أما دعاتهم فكثيرون منهم عمران بن حطان وقطري بن الفجاءة والطرماح والجميع يتحاشون الموت على الفراش في ساحة القتال(١٢).

٤. الشيعة

كان للشعر دور هام في موكب التشيع والدفاع عن عقيدة أهل البيت عليهم السلام كظاهرة هامة

للشعر العربي بالتغلغل إلى صميم قضايا المسلمين الفكرية والسياسية والعقيدية. وقد انضم إلى هذا الحزب كبار الصحابة الأجلاء وأعلام الإسلام الأتقياء أمثال سلمان الفارسي، والمقداد، وعمار بن ياسر، وأبي ذر الغفاري وغيرهم من الذين ساهموا في بناء الإسلام، وإقامة صروحه المباركة. آمن هذا الحزب إيماناً راسخاً في أن أهل البيت أحق بالخلافة، وأولى بها من غيرهم لأنهم سفينة النجاة وأمن العباد حسبما يقول الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله في أحاديث موثوقة عند الجميع منها هذا الحديث الذي سار على كل شفة ولسان: (إني تارك فيكم الثقلين ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا أبداً كتاب الله وعترتي أهل بيتي)، فضلاً عن مواهبهم العظيمة وعلومهم الوفيرة التي ورثوها عن آبائهم وأجدادهم الطاهرين المعصومين. فعلي بن أبي طالب عليه السلام كان أحق المسلمين بالخلافة لفضله وعلمه واستقامته وعدله وقوة شخصيته وسابقته في الإسلام ونص الرسول صلى الله عليه وآله عليه.

إن الحديث عن عصر الإمام أبي جعفر عليه السلام من الناحية السياسية له أثر كبير في حياة الأمام، إذ يعد من الضرورات المنهجية للبحث العلمي في حياة وفكر الإمام الباقر؛ وذلك لما له من تأثير واضح في الكشف عن سلوك الإمام وتفكيره السياسي. فقد كان عصر الإمام من أدق العصور الاسلامية، وأكثرها حساسية. فبالإضافة إلى الاحزاب التي انتشرت في عهد الإمام، فقد نشأت أيضاً الكثير من الفرق الاسلامية التي كانت أخطر الظواهر الفكرية والاجتماعية في ذلك العصر، كما تصارعت فيه الاحزاب السياسية كأشد ما يكون التصارع مما أدى إلى وقف المد الاسلامي، والانحراف عن مجراه إلى مجرى آخر ليس فيه أي بصيص من النور والوعي. لقد نشأت في ذلك العصر كثير من الفرق الاسلامية، وقد كان بعضها، قد أنشئ بإيعاز من الدولة الاموية أو بمساندتها؛ لأسباب كان من اهمها مساندة الحكم الأموي وتبرير مواقفه واتجاهاته وميوله السياسية. ومن أبرز هذه الفرق هي(١٣):

١. المعتزلة

بعيداً عن التنظير في اصول المعتزلة ومعتقداتهم السياسية، تبرز الحاجة هنا إلى التطرق بشكل عام ظهور المعتزلة كمدرسة سياسية في الفكر السياسي الإسلامي ودورها(١٤) الذي انيط بها في آنذاك وموقف الامام الباقر منها. لعبت المعتزلة دوراً خطيراً في تاريخ الحياة الفكرية والاجتماعية والسياسية في ذلك العصر، وتركت آثارا بعيدة في العقلية الاسلامية،

وكان منها تأسيس القواعد الفكرية التي قام عليها -فيما بعد- علم الكلام السني. ويرى البعض بأنهم هم أول من أدخلوا النزعة العقلية في الاسلام وصانوها.

إن الاعتزال بما يحمل من نزعات دينية، ومناهج كلامية قد كان مسانداً للحكم القائم في تلك العصور، وقد عمل زعماءه وأقطابه على مساندة السلطة وتبرير تصرفاتها السياسية، فبالرغم مما كان يتظاهر به قادة الاعتزال من التقشف والزهد، والنسك والعبادة فأنهم كانوا من أجهزة الحكم القائم في تلك العصور. أما ما يدعم ذلك، فإقرارهم لإمامة المفضول وجواز تقديمه على الفاضل، وقد اتخذوا ذلك للقول بمشروعية خلافة الأمويين وغيرهم ممن تسلموا قيادة الحكم مع وجود من هو أعلم منهم بشؤون الدين واحكام الشريعة، وقد نالوا بذلك التأييد المطلق من الأمويين واحترامهم. وعلى الرغم من أن هناك بعض المشتركات بين المعتزلة والشيعة الأمامية فيما يتعلق بسألة العدل الالهي أو ما شابه ذلك، إلا أن هناك اختلافات جذرية بين الاثنين، فقد اختلف الشيعة مع المعتزلة فيما يتعلق بتقديم المفضول على الفاضل. فجميع الازمات التي عانتها الأمة الاسلامية، كانت جراء تقديمها لخلافة المفضول على الفاضل. هذه النقاط الخلافية وتأييد المعتزلة للحكم الأموي، كان لها تأثير واضح وكبير في فكر الإمام الباقر عليه السلام ليس فقط مع المعتزلة وإنما مع المدارس الدينية والسياسية التي ظهرت متزامنة مع عصر الامام(١٥).

٢. المرجئة

ظهرت المرجئة على الصعيد الاسلامي في العصر الأموي، وقد لعبت دوراً خطيراً في مسرح الاحداث السياسية في تلك العصور، وساهمت مساهمة إيجابية في تدعيم الحكم الأموي والدفاع عنه. إن المرجئة قد نشأت بإيعاز ودعم من الحكم الاموي فهو جهد على نشر أفكارها واذاعتها بين الناس؛ لأنها حكمت بمشروعية خلافتهم، وتركت الحكم فيما اقترفوه من الاحداث الجسام إلى الله فهو الذي يحكم بين عباده بالحق يوم القيامة، وليس لاحد أن يلج أو يخوض في أعمالهم أو يحكم عليهم بشيء. لقد نشأت المرجئة نشأة سياسية، وكان اعلامها أداة طبيعية بأيدي الحكام والملوك سواء كانوا من بني أمية أم من بني العباس. وهذا ما يتفق مع السياسة الأموية آنذاك ويخالف الفكر الشيعي، مما أدخل الامام الباقر والشيعة بشكل عام في خلاف حاد مع هذه المدرسة التي اعطت المشروعية للحكم الأموي(١٦).

ثالثاً: الجانب الاجتماعي

فقد انغمس ملوك بني أمية باللهو الفارغ والترف الزائغ وتهالكوا على اللذة والمجون فأنفقوا بيت مال المسلمين على شهواتهم الشخصية، وشايعهم في ذلك أهل الثروة والثراء من الحاشية المقربين والشعراء المدّاحين والمغنيات والمغنين. ولم يتركوا لوناً من ألوان الدنيوي إلا استعملوه مقلدين حكام القياصرة وملوك الأكاسرة. فقد نسوا أو تناسوا أنهم مسلمين فانحرفوا عن سنة النبيين وشذوا عن أصول الدين وتركوا ما كان سائداً أيام عصر الرسول صلى الله عليه وآله وعهد الخلفاء الراشدين. إذ كانت الحياة العامة يسودها التقشف والزهد في مباهج الحياة، وقد سألت عائشة عن ثوبها أيام الرسول صلى الله عليه وآله فقالت: أما والله ما كان خزاً ولا قزاً، ولا ديباجاً ولا قطناً ولا كتاناً... وإنما كان سداه من شعر ولحمته من أوبار الإبل. والحقيقة أن الحياة في عصر بني أمية قد تغيرت تغيراً تاماً، فشباب بني مروان كانوا يرفلون في الوشي كأنهم الدنانير الهرقلية، ومروان بن إيان بن عثمان يلبس سبعة أقمص كأنها درج بعضها أقصر من بعض، وفوقها رداء عدني بألفي درهم، وممن أبدع من ملوكهم في اللهو والطرب يزيد بن عبد الملك فقد شغل عن مصالح الدولة بجاريتين إحداهما سلامة والأخرى حبابة، فتسلطت حبابة على قلبه وعقله حتى أصبحت المملكة طوع إرادتها، تولي من شاءت وتعزل من شاءت، وهو لا يعرف من أمور الدنيا شيئاً(١٧).

رابعاً: الجانب الاقتصادي.

مما لا ريب فيه أن الحياة السياسية تؤثر تأثيراً كبيراً على الحياة الاقتصادية في أي عصر من العصور. ففي عصر الإمام الباقر عليه السلام كانت الحياة الاقتصادية مضطربة ومشلولة فثروة البلاد قد انحصرت في أيدي الطبقة الحاكمة وعند عملائها وحاشيتها. وهم بدورهم ينفقونها بسخاء على كل من يلوذ ببلاطهم من الشعراء والأدباء والعملاء الذين كانوا يهللون للحاكم ويدعون له في المناسبات الحكام يتفننون في أنواع الملذات وعامة الشعب كانت ترزح تحت نير الفقر والبؤس. فالأسعار غالية جداً قد أرهقت كواهل الناس، وكلفتهم من أمرهم شططاً. حتى أصبح عامة الناس طاوية بطونهم عارية أجسادهم. وما أشبه اليوم بالبارحة!! كان عامة الناس على هذا الغرار يعيشون حياة الفقر، وهل أقسى من الفقر على الإنسان؟ قال أمير المؤمنين في هذا المجال: (لو تمثل لي الفقر رجلاً لقتلته). لقد تحول اقتصاد الدولة إلى جيوب الأمويين ومن سار على ركابهم دون أن ينفق شيء منه على تطور الحياة العامة

وازدهار مرافقها وتقدمها[١٨].

خامساً: الحياة العلمية

لقد أثرت الحياة السياسية وما سادها من قلق واضطرابات على الحياة العلمية تأثيراً سلبياً واضحاً ظهرت معالمه بكثير من الجمود والخمول في عصر الإمام الباقر عليه السلام. فالتيارات السياسية التي حرفت الناس وتهالكت من خلالها البيوتات الرفيعة على الظفر بالحكم والطاقات البشرية والمالية استهلكت جميعها في حروب طاحنة ومذهلة، والنكبات الفظيعة التي منيت فيها الأمة وجرت عليها أفدح الخسائر المادية والبشرية. كل ذلك أثر على الحركة العلمية وجعلها تتردى ضموراً وانحلالاً. لقد قاد الإمام الباقر عليه السلام في تلك الحقبة الزمنية حركة علمية واسعة استمرت حتى بلغت ذروتها في إمامة ابنه الإمام الصادق عليه السلام فقد حصل بعد ظهور الإمام الباقر عليه السلام تقدّم واسع في هذا الصعيد، وظهرت حركة علمية ثقافية جديرة بالإكبار في أوساط الشيعة كسرت حاجز التقية إلى حدّ ما، وأزالت حالة الانحسار الذي مني به الفكر الشيعي في دوائر خاصة، ففي ذلك الوقت بدأ الشيعة بتدوين علومهم الإسلامية كالفقه والتفسير والأخلاق و... وقد بلغت من الوفرة حدّاً لو قورن بما نقل عن أبناء الحسن والحسين عليه السلام قبله لكان ما نقل لا يساوي معشار ما نقل عن الإمامين الباقر والصادق عليه السلام[١٩].

سادساً: تصدي الإمام للإسرائيليات

من الفئات التي كانت موجودة آنذاك في المجتمع الإسلامي وكان لها تأثير عميق في ثقافة المجتمع ذلك الوقت هم اليهود. فقد انتشر في المجتمع الإسلامي آنذاك مجموعة من أحبار اليهود الذين تظاهروا باعتناق الإسلام ومجموعة أخرى لازالوا على الديانة اليهودية، وقد تصدّوا للمرجعية العلمية لطبقة من بسطاء المجتمع الإسلامي. ومن هنا برزت ضرورة الوقوف أمام اليهود وإيحاءاتهم في الثقافة الإسلامية السيئة، وتكذيب الأحاديث المجعولة من قبلهم عن أنبياء الله وبعض ما ينقلوه مما يشوّه سمعة الأنبياء، وقد تصدى الإمام عليه السلام لهم بقوة وبشكل جيد يكشف عن تعالي الإسلام وهيمنة الفكر الإسلامي على مثل هؤلاء المنحرفين ومع تلك الفرق الضالة. وقد أشار زرارة إلى هذه القضية بقوله: "كنت قاعداً إلى جنب أبي جعفر عليه السلام وهو محتبٍ مستقبل القبلة فقال: أما أن النظر إليها عبادة. فجاءه رجل

من بجيلة يقال له عاصم بن عمر، فقال لأبي جعفر عليه السلام: إنّ كعب الأحبار كان يقول: إنّ الكعبة تسجد لبيت المقدس في كل غداة.فقال له أبو جعفر: فما تقول فيما قال كعب؟ قال: صدق القول ما قال كعب. فقال له أبو جعفر: كذبت وكذب كعب الأحبار معك وغضب...ثم قال: ما خلق الله عزّ وجلّ بقعة في الأرض أحبّ إليه منها..."[٢٠].

ومع ذلك اتجه الأمويون اتجاهاً عسكرياً مدمراً في حروب داخلية مريعة وعاشت الأمة حياة لم يكن فيها أي بصيص لنور المعلم وتألق الفكر، وما حدث أن ذلك النور الذي فجره الإسلام في العالم العربي خاصة وسائر الدنيا عامة، قد خبا وضعف بريقه عما كان عليه في صدر الإسلام، الإسلام الذي أراد للبشرية أن تسير على هديه لتحقق أهدافها الإنسانية ورسالتها المثلى من الأمن والرخاء والتطور. كان هم الإسلام الإنسان وهدفه تحسين أوضاعه ليعيش بسعادة وحرية وكرامة. كل ذلك قد توقف في العصر الأموي ولم يعد له ظل يذكر بسبب انحراف الحكام الأمويين عن الخط الإسلامي الذي رسمه الرسول الأعظم وجاهد الأئمة الأطهار على تطبيقه عبر جهاد مرير ضد الظالمين والمجرمين والمارقين. والإمام الباقر عليه السلام لابد له من أن يسير على خط آبائه وأجداده ويكمل الرسالة النبوية وينفذ الوصية. فما كان دوره في تلك الأيام العصيبة؟

تميز الإمام الباقر عليه السلام بمواهب عظيمة وطاقات هائلة وعبقريات ضخمة من العلم شملت جميع أنواع العلوم وشتى المعارف من فقه وعلم كلام وحديث وفلسفة وحكم إنسانية عالية، وآداب أبدية سامية، مضافاً إلى علم خاص زود به بأخبار عن أحداث قبل وقوعها، ثم تحققت على مسرح الحياة. ومع سعة مدى علومه وكثرة ما انتهل العلماء من نمير معارفه فإنه كان يشعر في نفسه ضيقاً وحرجاً لكثرة ما عنده من العلوم التي لم يجد لنشرها سبيلاً. وكثيراً ما كان يصعد الحسرات ويقول: "لو وجدت لعلمي الذي أتاني الله عز وجل لنشرت التوحيد والإسلام والدين والشرايع... وكيف لي بذلك، ولم يجد جدي أمير المؤمنين عليه السلام حملة لعلمه حتى كان يتنفس الصعداء ويقول على المنبر: سلوني قبل أن تفقدوني فإن بين الجوانح علماً جماً". وقد أجمع المؤرخون أن الإمام الباقر عليه السلام كان من أغنى رجال الفكر والعلم في عصره في مواهبه الشخصية وقدراته العلمية، وأنه ممن رفع منار العلم وأبرز حقائقه وأظهر كنوزه لجميع من قصده من علماء عصره.

أطل الإمام الباقر على عالم مليء بالاضطرابات والفتن والأحداث الدامية. نظر إلى الحياة من حوله فوجدها قد فقدت جميع مقوماتها ولم تعد كما أرادها رب العالمين في وحدتها وتطورها في ميادين العلم والعطاء. لم يجد بداً الإمام عليه السلام أن يقوم بواجبه الشرعي لإعادة مجد الأمة الإسلامية وردها إلى الخط السليم وبناء كيانها الحضاري. ولا يتم ذلك إلا عن طريق منائر العلم وصروح الفكر، فانصرف عن كل تحرك سياسي من شأنه أن يعيد السلطة المغتصبة، واتجه صوب العلم وحده متفرغاً له في عزلته في المدينة المنورة، حصن الإسلام الأمين. وفي هذا الحصن المنيع كان يخف إليه العلماء من أعيان الأمة وسائر الأقطار للاستفسار والشرح والتحصيل. وكان ممن وفد إليه العالم الكبير جابر بن يزيد الجعفي ومحمد بن مسلم الطائفي، وأبو بصير المرادي، وأبو حمزة الثمالي ووفود علمية تترى جاءت لتأخذ عنه العلوم والمعارف. جاء في عيون الأخبار (وما قصد أحد من العلماء مدينة النبي صلى الله عليه وآله إلا عرج عليه ـ يقصد الإمام الباقر ـ ليأخذ عنه معالم الدين، وقد أخذ عنه أهل الفقه ظاهر الحلال والحرام[٢١].

خلاصة القول: إن العالم الإسلامي استمد من الإمام الباقر جميع مقومات نهوضه وارتقائه في المنهج الحضاري، ولم يقتصر المد الثقافي والحضاري على عصره، وإنما امتد إلى العصور التالية. وقد جاء عليه السلام ليكمل رسالة أهل البيت عليهم السلام في تطور الحياة العلمية في الإسلام. والحق يقال أن الحياة الثقافية في عصر الإمام مدينة لهذا الإمام العظيم الذي يعد الباعث والقائد والناهض بها على امتداد التاريخ، إلا أنه يفتقد إلى الدراسات العلمية الصحيحة التي تنقب عن هذا الإمام والعالم الكبير.

المبحث الثاني

الإمامة عند الإمام الباقر عليه السلام وموقفه من السلطة

شكلت قضية خلافة الرسول محمد صلى الله عليه وآله العامل الأهم لنشأة الفكر السياسي الشيعي وتطوره خلال المراحل التاريخية، وأساس الخلاف العقائدي بين الفرق الإسلامية المختلفة، فالإمامة هي صفة التشيع الرئيسة، إذ تعد من الأصول العقائدية الخمسة لفريق من الشيعة (الإثني عشرية)، والذين يتميزون بأصلي الإمامة والعدل، عن بقية المذاهب الإسلامية. كما أن الإمامة وشروطها وكيفية تنصيب الإمام/الخليفة وصلاحياته، والتي كانت السبب

الرئيس لاندلاع أول ثورة في الإسلام، تلك التي اطلق عليها أسم "الفتنة الكبرى" في زمن الخليفة عثمان ٣٥هـ[٢٢]. ولهذا ركز البحث على مفهوم الإمامة عند الإمام الباقر عليه السلام وكذلك موقفه من السلطة. وهذا ما سيتم تناوله في هذا المبحث بمطلبيه الأول والثاني.

المطلب الأول

الإمامة عند الإمام الباقر عليه السلام

إن أول من كتبوا في الإمامة كتابة علمية، وأول من تصدوا لإثبات مذهبهم بالأدلة المنطقية سواء كانت الادلة مبنية على اساس "ديني" ثيولوجي أو "عقلي" هم الشيعة. فالشيعة لهم الفضل في خلق هذا النوع من العلم المسمى بـ "بالإمامة"، هم الذين أوجدوه وأفردوا له مكاناً بين مباحث "علم الكلام". واذا كان من المعروف أن "علم الكلام"، فيما يختص بالعقائد الدينية، إنما نشأ كنتيجة للمناقشة والجدال بين الشيعة والمعتزلة وأهل الحديث، فكذلك مباحث الإمامة – وهي الجانب السياسي منه – إنما وجدت نتيجة للنقاش بين الشيعة ومخالفيهم: من خوارج ومعتزلة، وأهل سنة أيضاً. وهذه الحقيقة ذات دلاله كبيرة. إذ أنه ترتب على أن الشيعة هم الذين اوجدوا هذا العلم، أنهم طبعوه بطابعهم، وصاغوه الصياغة التي ارتضوها. ومراعاة هذه الفكرة تفسر لنا أشياء كثيرة: فالشيعة – في الغالب– هم الذين اختاروا للإمامة مصطلحاتها الفنية، بل هم الذين سموها بهذا الأسم؛ وهم الذين قسموا العلم وبوبوا أبوابه، وعينوا مجاله ورسموا حدوده[٢٣].

يقول الإمام أبي جعفر محمد أبن يعقوب الكليني: كتب "الحسن بن العباس" المعروف إلى الرضا: "أخبرني ما الفرق بين الرسول والنبي والإمام"؟ قال: "الفرق أن الرسول هو الذي ينزل عليه جبريل فيراه ويسمع كلامه، وينزل عليه الوحي، وربما رأى في منامه مثل رؤيا إبراهيم، والنبي ربما سمع الكلام ولم يرى الشخص ولم يسمع، والإمام هو الذي يسمع الكلام ولا يرى الشخص". وورد فيه أيضاً: "سمعت الرضا يقول: إن الحجة لا تقوم لله عز وجل على خلقه إلا بإمام، حتى يعرف". وعن أبي عبد الله "وهو جعفر الصادق" قال "إن الله أجل وأعظم من أن يترك الأرض بغير إمام عادل". وعن أبي جعفر (وهو الإمام الباقر) قال: "لا يكون العبد مؤمناً حتى يعرف الله ورسوله والأئمة عليهم السلام كلهم، وإمام زمانه ويرد إليه ويسلم له". وتكلم الكليني بعد ذلك عن "أن طاعة الأئمة فرض" و "أن

القرآن لا يكون حجة إلا بقيم" وأن " الأئمة شهداء الله على خلقه" وأنهم "ولاة أمر الله وخزنة علمه" وأن "الأئمة خلفاء الله تعالى في أرضه"، وأنهم "نور الله عز وجل"، وهم "أركان الأرض" قال الإمام الصادق عليه السلام "جعلهم الله أركان الأرض أن تميد بأهلها". إن الإمامة خلافة الله وخلافة الرسول، ومقام أمير المؤمنين وميراث الحسن والحسين عليهما السلام.

إن الإمامة زمام الدين، ونظام المسلمين، وصلاح الدنيا وعز المؤمنين. إن الإمامة أس الإسلام النامي، وفرعه السامي. بالإمام تقام الصلاة والزكاة، والصيام والحج والجهاد، وتوفير الفيء والصدقات، وإمضاء الحدود والأحكام، ومنع الثغور والأطراف. الإمام يحل حلال الله ويرحم حرام الله ويقيم حدود الله، ويذب عن دين الله، ويدعو إلى سبيل ربه(٢٤). من خلال ما تقدم يتبين لنا أهمية الإمامة بالفكر السياسي الشيعي. إذ لا يمكن فهم الشيعة، بشكل عام، والشيعة الإثني عشرية، بشكل خاص، دون معرفة رأيهم في قضية الإمامة. وتأتى أهمية الإمامة لدى الشيعة، من كونها ضرورة من ضرورات الدين عندهم. كما تعتبر من المسائل الرئيسة التي تميز الشيعة وتفرقهم في الوقت نفسه عن بقية المذاهب الإسلامية الأخرى، نتيجة اعتبارها أصلاً من أصول الدين. وهناك مساواة بين النبوة والإمامة باعتبار كليهما منصوص عليها من الله تعالى والفارق الوحيد بينهما هو الوحي؛ ولذلك تعتبر الإمامة من وجهة نظر الشيعة" كونها منصباً إلهياً يختاره الله بسابق علمه بعباده، كما يختار النبي ويأمر النبي بأن يدل الأمة عليه ويأمرهم باتباعه ويعتقدون ان الله سبحانه أمر نبيه بأن ينص على إمامة الإمام علي عليه السلام وينصبه علما للناس من بعده. كما يعتقد الشيعة بأن الإمامة تورث عن النبوة بمعناها السياسي (الوظيفة) والروحي، باعتبار أئمة أهل البيت وارثين كتاب (الله). كما يتميز الفكر السياسي الشيعي، بعدم محدودية سلطة الإمام، أي بمعنى أن سلطة الإمام غير محددة المكان "تشمل الأرض كلها"(٢٥). ولهذا فأن الشيعة الإثني عشرية يعتقدون بإن الإمامة منصب تم من خلاله اختيار الإمام علي عليه السلام إليه ليكون إماماً للمسلمين بعد وفاة النبي محمد، الذي قام بتبليغ المسلمين بهذا الامر الإلهي بعد نزول أية ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾(٢٦). ونتيجة للانقسامات والحروب التي حلت بالأمة الإسلامية بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وآله والنكوث بوصاياه، ونتيجة ما جرى في كربلاء في واقعة الطف، التجأ الفكر السياسي الشيعي متمثلاً بفكر الأئمة عليهم السلام والصحابة المقربين إلى ترك السياسة بشكلها العلني، وممارسة الإصلاح

السياسي والإصلاح بشكل عام بموازاة السلطات القائمة آنذاك، وعلى الرغم من جرم وتسلط الدولة الأموية، إلا أن الإمام الباقر عليه السلام استطاع أن يظهر مفهوم الإمامة ودور الإمام وصفاته وعظمته لشيعته ولعامة الناس.

استمر الإمام الباقر عليه السلام على نهج الابتعاد عن النشاط السياسي، الذي واصل مهمة التركيز على الجانب الثقافي في نشاط الشيعة الفكري، ويعتبر الباقر الإمام الخامس للشيعة الإثني عشرية الشيعة مؤسس عقائد المذهب الذي ارسي مبادئه أبنه جعفر الصادق. لقد قام الإمام الباقر عليه السلام بتأصيل مفهوم عقيدة الإمامة لدى الشيعة في ظروف بالغة الصعوبة ليس فقط بسبب الحصار السياسي من قبل أجهزة القمع الأموية، وإنما تمثلت بالصراع بين زعماء الشيعة المتنافسين على قيادة حركة الشيعة، إذ أدعى كل منهم أحقيته بالإمامة، فقد أدعى أخيه زيد بأحقيته، كذلك كان هناك نزاع بين الإمام الباقر ومدعي الإمامة من أبناء محمد بن الحنفية (كما يذكره الكليني في الكافي). لقد حتمت الإشكاليات السابقة على الإمام الباقر، وضع الأصول العقائدية للإمامة التي استمرت بأعقاب استشهاد الإمام الحسين عليه السلام. وكما ذكرنا سابقاً أن الإمام محمد الباقر أول من طرح مفهوم عصمة الأئمة ووجوب طاعتهم. وبخصوص وجوب طاعة الأئمة يقول: "ذروة الأمر وسنامه ومفتاحه وباب الأشياء ورضا الرحمن تبارك وتعالى الطاعة للإمام بعد معرفته"(٢٧).

ولهذا تعد الامامة في الفكر السياسي الشيعي نفحة من روح الله، ورحمة من رحماته انعم بها على هذا الانسان لتدله على الايمان، وتلهمه الخير وتهديه إلى سواء السبيل وهي من اصول الدين، وأركان الإسلام عند الشيعة الامامية؛ لأنها القاعدة الصلبة التي تتركز عليها العدالة الاجتماعية في الاسلام، وقد تحدث الإمام أبو جعفر الباقر عليه السلام عن كثير من جوانب الإمامة، باعتبارها من أصول الدين وأركان الإسلام في مدرسة أهل البيت، وهي القاعدة الصلبة التي ترتكز عليها بنى الإسلام وكان ذلك في وقت عصيب عملت فيه السلطة بكل ما أوتيت من قوة على طمس معالم الإمامة، وإقصاء أهلها. وكان من مضامين حديثه في هذا الاتجاه بيان ضرورة ووجوب الإمامة، ووجه الحاجة إلى الإمام، وكون معرفته من ضرورات الدين، التي بدونها يموت المرء ميتة جاهلية، وتحدث عن منزلة الإمام وعظمته وكرامته عند اللّه، وأكد على أن الأئمة الذين فرض اللّه طاعتهم هم المعصومون الإثني عشر من أهل البيت حصراً، وهم الأوصياء، الذين أوجب اللّه سبحانه التمسك بهم

وطاعتهم وإخلاص الولاية لهم، وفرض حبهم ومودتهم والصلوات عليهم، وأبرز جوانبها كان ما يلي:

أولاً: الحاجة إلى الإمام

أكّد الإمام الباقر عليه السلام على ضرورة الإمامة ووجوبها من اللّه تعالى؛ ذلك لأن الإمام حجته على عباده، وهو الذي يهتدى به إليه سبحانه، من هنا لا تخلو الأرض من إمام حي معروف ظاهر أو غائب منذ بدء الخليقة إلى آخر الدهر. عن أبي هراسة، عن أبي جعفر الباقر يقول: "لو أن الإمام رفع من الأرض ساعة لساخت بأهلها وماجت، كما يموج البحر بأهله"(٢٨).

ولتأكيد ضرورة النبوة والإمامة، ذكر الإمام الباقر العلّة التي من أجلها يحتاج إلى النبي والإمام، وهي تحقيق صلاح العالم وأمان أهل الأرض. عن جابر بن يزيد الجعفي، قال "قلت لأبي جعفر محمد بن علي الباقر لأي شيء يحتاج إلى النبي والإمام؟ فقال: لبقاء العالم على صلاحه، وذلك أن اللّه عز وجل يرفع العذاب عن أهل الأرض إذا كان فيه نبي أو إمام". وقال الله عز وجل: "وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم" وقال النبي صلى الله عليه وآله: "النجوم أمان لأهل السماء، وأهل بيتي أمان لأهل الارض، فاذا ذهبت النجوم أتى أهل السماء ما يكرهون، وإذا ذهب أهل بيتي أتى أهل الأرض ما يكرهون". حفل حديث الامام عليه السلام بضرورة الامامة؛ لأنها تنشد أهل البيت عليهم السلام وأنهم أمان لأهل الأرض، وبهم سيدفع البلاء وينزل الغيث وتخرج بركات الأرض. فالإمامة ضرورة من ضروريات الحياة الاسلامية، لا تستقيم شؤون المجتمع من دونها، وقد اجمع المسلمون على لزومها وضروراتها(٢٩).

ثانياً: وجوب معرفة الامام

تحدث الإمام الباقر عن وجوب معرفة إمام العصر، لارتباط هذه المعرفة بمعرفة اللّه، إذ قال "إنما كلّف الناس ثلاثة: معرفة الأئمة، والتسليم لهم فيما ورد عليهم، والرد إليهم فيما اختلفوا فيه" وأكّد حديث آبائه "أنّ من مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهلية"(٣٠). وتظافرت الاحاديث عن النبي صلى الله عليه وآله وعن سدنة علومه الأئمة الطاهرين في لزوم معرفة امام العصر، وإن من مات ولم يعرفه مات ميتة جاهلية – حسب النص النبوي – وقد أثرت عن الامام أبي جعفر عليه السلام أخبار كثيرة بذلك كان منها: ما رواه بن يزيد الجعفي قال: سمعت أبا

جعفر يقول "إنما يعرف الله عز وجل ويعبده من عرف امامه منا أهل البيت، ومن لا يعرف الله عز وجل، لا يعرف الامام منا أهل البيت فإنما يعرف ويعبد غير الله..". إن أئمة أهل البيت عليهم السلام هم الذين تجب معرفتهم لأنهم سدنة الوحي وأوصياء الرسول صلى الله عليه وآله وخلفاءه على أمته، لا ملوك بني أمية، وملوك بني العباس الذين تمرغوا في الأثم وأشاعوا الجور والفساد في الأرض(٣١). من هنا فإن الحجة لا تقوم للّه عز وجلّ على عباده إلاّ بإمام حي معروف.

ثالثاً: وجوب طاعة الإمام

وطاعة الامام واجب ديني اعلنه القرآن الكريم في قوله تعالى: "اطيعوا الله واطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم"(٣٢). وتظافرت الاخبار بذلك، روى زرارة عن ابي جعفر عليه السلام أنه قال: "ذروة الأمر وسنامه ومفتاحه، وباب الأشياء ورضا الرحمن تبارك وتعالى، الطاعة للإمام بعد معرفته... أن الله تبارك وتعالي يقول: "من يطع الرسول فقد طاع الله ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظا". إن في طاعة أئمة الهدى عليهم السلام نظاما للدين واقامة للعدل؛ لانهم لا يأمرون إلا بالحق وبه يحكمون(٣٣).

رابعاً: حق الإمام على الناس

إن للأمام على الناس حقا، كما أن لهم عليه حقاً، وقد تحدث الامام الباقر عليه السلام عن ذلك، فقد سأله أبو حمزة قائلاً: ما حق الامام على الناس؟ فأجابه بأن حقه عليهم بأن سمعوا ويطيعوا. ثم سأله ما حقهم عليه؟ فأجابه بأن يقسم بينهم بالسوية، ويعدل في الرعية. إن حق الإمام علة الناس السمع والطاعة لأوامره الهادفة لسعادتهم وصلاحهم، وأما حقهم عليه فهو أن يقسم أموال الله بينهم بالسوية فلا يؤثر قوما على اخرين وأن يبسط العدل الذي هو ظل الله في أرضه.

خامساً: عظمة الامامة

إن للأمام كرامة عند الله ومنزلة لا يبلغها أي أحد من عباده، وقد تحدث عنها الامام الباقر عليه السلام قال لجابر بن يزيد الجعفي: "إن الله اتخذ ابراهيم عبدا قبل أن يتخذه نبياً، واتخذه نبياً قبل أن يتخذه رسولا، واتخذه رسولاً قبل أن يتخذه خليلاً، واتخذه خليلاً قبل أن يتخذه اماماً، فلما جمع له هذه الاشياء وقبض يده قال له: يا ابراهيم "أني جاعلك للناس اماماً" فمن عظمها في عين ابراهيم قال: يا رب ومن ذريتي، قال: لا ينال عهدي الظالمين..".

ومعنى هذا الحديث أن الامامة أرقى منزلة عند الله، لا يصل إليها الانبياء والمرسلون، وقد خص الله بها خليله ابراهيم وجعلها من مكملات ذاتياته المشرقة، وخص الله بها الأئمة الطاهرين من أهل البيت الذين هم سدنة الوحي، وابواب الهداية والرحمة لهذه الأمة(٣٤).

المطلب الثاني

موقف الإمام من السلطة وآليات معرفة الإمام

اتبع الإمام الباقر عليه السلام اسلوب الحيطة ازاء عنف رجال السلطة وبطشهم، فانصرف عن هموم السياسة، ودعا اصحابه إلى مقاطعة السلطة، ولم يبخل بإسداء النصح لبعضهم حيثما يتعلق الأمر بمصالح المسلمين، وإذا كان قد اتقى على نفسه وأصحابه من رجال السلطة، فإنه لم يتردد من مواجهة بعض الحكام في مواقف فرضوها عليه، فكم من كلمة حق قالها أمام سلطان جائر، وانقطع إلى نشر علوم الإسلام ومعارفه، وواصل مسيره في هداية الناس والدعوة إلى الله، وقضاء حقوق المسلمين والسعي في حاجاتهم، وتنبيههم على مواضع الخطر(٣٥).

أولاً: مقاطعة السلطة

الإمامة رئاسة عامة في أمور الدين والدنيا، ولا تنال إلا بتعيين من السماء ينص عليه النبي المرسل، وذلك من تمام الدين وكمال النعمة، ومن صلب واجب النبي صلى الله عليه وآله الذي بعث رحمة للأنام، وجمع كلمتهم ونظم أمرهم ورفع أسباب الخلاف من بينهم، فلا يصح أن يترك أمرهم بعده هملاً، بل لا بد أن يبين لأمته من يأتمنه على دين الله تعالى ورسالاته، ليقوم بأمرهم من بعده. وقد أدى المصطفى عليه السلام امانة ربه حق الأداء، وبلغ رسالة ربه تمام البلاغ، فلم يفارق أمته حتى أرشدهم إلى ولي الأمر من بعده، ونص على أخيه ووصيه علي ابن ابي طالب عليه السلام في مناسبات عدة ومواضع شتى، وقد تواترت النصوص بهذا عند المسلمين قاطبة. كما نص على أحد عشر إماما يكونون بعد علي بأسمائهم وأوصافهم، كما نص كل إمام على الإمام اللاحق له، وقد صحت بذلك الأحاديث من طرق شتى، وتناقلتها نفائس كتب الحديث والتاريخ وغيرها. من الأمور التي يجب توافرها في الإمام بعد ثبوت النص: العصمة والدلالة وسلامة النسب والنشأة والسبق في العلم والحكمة وسائر الفضائل، ليكون أهلاً لهذه المنزلة، وقطباً تلتف حوله الناس. والإمام الباقر عليه السلام كآبائه الأطهار، توفرت فيه جميع الشروط المطلوبة في الإمام. وعلى الرغم من توفر تلك الشروط

الإلهية والدنيوية للأئمة عليهم السلام، إلا أن الظلم الذي وقع على الشيعة عبر التاريخ والمحن التي وقعت بهم، والتي كانت مأساة الإمام الحسين عليه السلام في كربلاء تجسيداً لها، قد جعلت منهم يلزمون التقية، لاسيما في عهد الإمام الباقر وأبنه الصادق عليه السلام ويبتعدون عن طلب السلطة وينهون عن الثورة ويبشرون بالخلاص القادم المرهون بمشيئة السماء ومعونتها.. ولقد عبر الإمام الصادق عليه السلام عن ذلك بقوله عندما حذر انصاره "إن بني أمية يتطاولون على الناس، حتى لو طاولتهم الجبال لطالوا عليها وهم يستشعرون بغض أهل البيت، ولا يجوز أن يخرج (يثور) أحد من أهل البيت حتى يأذن الله بزوال ملكهم"(٣٦). في لحظة الاستبداد المطلق هذه والتي تلبست بالجسد والروح تقدم الإمام الباقر عليه السلام لا ليغذي الصراع الدموي، ولا ليسعر أوار الفتنة بين الدولة والمجتمع بل لنقل الصراع من المواجهة المسلحة إلى المواجهة السلمية(٣٧).

لم يكن الإمام الباقر عليه السلام ذلك المعارض الذي يرى الخروج بالسيف كوسيلة للوصول إلى السلطة، رغم إيمانه بأنه أولى الناس بالأمر، ويعلل ذلك في حديثه إلى جابر بن يزيد الجعفي بعدم وجود الناصر. من هنا دعا الإمام أتباعه إلى مقاطعة السلطة وتحريم التعاون مع رموزها الذين أمعنوا كثيراً في إقصاء أهل البيت عن ممارسة دورهم الرسالي، ومارست ضدهم شتى أساليب الظلم والجور والقتل. وسعى الإمام الباقر عليه السلام إلى تنبيه الأمة على أن التعامل مع الحكام يعتبر تقوية لظلمهم وجبروتهم، ومشاركةً لهم في جناياتهم، فحرم التورط في أعمال الظلمة، ومعونتهم ولو لتمرير المعاش(٣٨).

إن السيرة الشرعية والسيرة العقلانية تؤكد أن كل الأنبياء والرسل والأئمة بعثوا في ومن وإلى قرى وأقوام وأمم، أي أنهم بعثوا في ومن وإلى واقع من أجل النهوض به. وهذا يعني أن حركتهم كانت واقعية لا غيبية. إنها حركة الشرعية بمواجهة اللاشرعية وحركة القانون والنظام والعدالة بمواجهة اللاقانون. واللانظام واللاعدالة، وهي بالتالي حركة الطبيعة البشرية الكونية، ولكن ما هو الطبيعي في الفكر السياسي وفي الممارسة السياسية للفكر الجعفري؟ إنها القاعدة التي تقول: "إن الناس إنما هم في هدنة"، أي أن الكل مجبور على أن يهادن الكل في سبيل العيش المشترك والمصلحة العامة، لعل هذه الحكمة القانونية هي حقيقة تاريخية وسياسية واقتصادية واجتماعية عامة ولعل التاريخ البشري كله هو تاريخ هدنة أزلية أبدية أنتقل الإنسان خلالها من غالب إلى مغلوب أو من وضع إلى آخر سلباً وإيجاباً في مسيرة حياته المضنية مع التأكد على أن الهدنة غير المهادنة بل هي اللامهادنة مطلقاً(٣٩).

ضمن هذا الخط وفي إطار هذا القانون العام تحرك الأئمة ومنهم الباقر عليه السلام للأعتراف الضمني بالواقع لا الاعتراف الشرعي أو القانوني به. وفي الوقت الذي دعى فيه إلى هيبة السلطان – السيادة – أعطى الشعب حق المقاومة والمواجهة السلمية أو ما سيعرف بالعصيان المدني في اللغة السياسية المعاصرة.

فإذا كان السلم الأهلي والأمن العام والوحدة أو الانصهار القومي بالمفهوم المعاصر يفرض التعاون، فذلك لا بد منه شرعاً "لأن لله تبارك وتعالى مع السلطان أولياء يدفع بهم عن أولياءه" ولعل هذا ما يفسر ذلك التوجه الإسلامي العام للشيعة خاصة باتجاه الانخراط في البنية السياسية للدولة العباسية في عهد الإمام الباقر والصادق عليه السلام ومن بعدهم بدرجات متفاوتة.

بعد الخلافة الراشدة أصبح للإسلام وجودين واضحين: وجود رسمي على مستوى الدولة ووجود شعبي خارج إطار الدولة... ولعل معالم هذا الانفصال ترجع في جذورها إلى الخليفة الثالث عثمان وسياسته اللاشرعية التي أثارت المجتمع الإسلامي ومهدت لما سيعرف لاحقاً بالفتنة الكبرى بين الإمام علي عليه السلام ومعاوية، ومن ثم لفتن لحقتها. لعل معالم هذا الانفصال ترجع إلى السقيفة أيضاً وأحداثها والشرخ الذي أحدثه بعض المجتمعين هناك والذي سيسلم به الإمام علي عليه السلام ما سلمت أمور المسلمين(٤٠). ولهذا اعطى الإمام الباقر عليه السلام آليات معرفة الإمام للاستدلال على امامته حتى لا يلبس الحق بالباطل من قبل السلطة الأموية على عامة الناس والشيعة على وجه الخصوص. وقد استثمر الإمام ذلك في مقاطعة السلطة وإصلاح الناس من خلال موازاتها؛ وذلك بالاستدلال على الأئمة عليهم السلام.

ولهذا يعد الانقلاب الذي احدثه الإمام الباقر على مستوى المواجهة السياسية، بمثابة العرف في الفكر السياسي الشيعي المتمثل بالإصلاح بموازاة السلطة، فهو انقلاب لا يوازيه شيء، إلا انقلاب حد السيف الناضج بالدم إلى حد القلم الناضج بالفكر. كيف استطاع أن يرتقي بالفتن والحروب والاقتتال الداخلي ليحوله إلى سجال فكري وسياسي، سوف لن يستمر كثيراً بعده وكيف ساهمت الدولة كجهاز تزامن القمع والاستبداد معها منذ ولادتها وحتى يومنا هذا على القضاء على ذلك العقل السياسي في الإسلام والحيلولة دونه ودون استكمال مشروعه الرسالي؟.

ثانياً: كيف يعرف الإمام؟

تحدث الإمام الباقر عليه السلام عن الوسائل التي يتمكّن المرء من التّعرف على الإمام، أو الخصال التي يجب توافرها في الإمام، لكي يسحب البساط عن كل من يدعي هذا المنصب الخطير. عن أبي الجارود، قال: سألت أبا جعفر الباقر: " بم يعرف الإمام؟ قال: بخصال أولها: نص من الّله تبارك وتعالى عليه، ونصبه علماً للناس حتى يكون عليهم حجة؛ لأن رسول الّله صلى الله عليه وآله نصب علياً وعرفه الناس باسمه وعيّنه، وكذلك الأئمة: ينصب الأول الثاني، وأن يُسأل فيجيب، وأن يسكت عنه فيبتدئ، ويخبر الناس بما يكون في غد، ويكلم الناس بكل لسان ولغة"(٤١).

ثالثاً: الآثار المترتبة على عدم معرفة الإمام

شرح الإمام الباقر عليه السلام الآثار المترتبة على عدم معرفة الإمام، وعلى رأسها عدم قبول الأعمال إلاّ بتلك المعرفة، ضارباً أروع الأمثلة في هذا السياق. عن محمد بن مسلم قال: سمعت أبا جعفر يقول: "كل من دان الّله عز وجل بعبادة يجهد فيها نفسه ولا إمام له من الّله، فسعيه غير مقبول، وهو ضال متحير، والّله شانئ لأعماله، ومثله كمثل شاة ضلت عن راعيها وقطيعها، فهجمت ذاهبة وجائية يومها، فلما جنّها الليل بصرت بقطيع غنم مع راعيها، فحنت إليها واغترت بها، فباتت معها في مربضها، فلما أن ساق الراعي قطيعه، أنكرت راعيها وقطيعها، فهجمت متحيرة تطلب راعيها وقطيعها، فبصرت بغنم مع راعيها فحنت إليها واغترت بها فصاح بها الراعي: ألحقي براعيك، وقطيعك فأنت تائهة متحيرة عن راعيك وقطيعك فهجمت ذعرة متحيرة تائهة لا راعي لها يرشدها إلى مرعاها أو يردها، فبينا هي كذلك إذ اغتنم الذئب ضيعتها، فأكلها. وكذلك والّله يا محمد من أصبح من هذه الأمة لا إمام له من الّله عز وجل ظاهر عادل، أصبح ضالاً تائهاً، وإن مات على هذه الحالة مات ميتة كفر ونفاق. واعلم يا محمد أن أئمة الجور وأتباعهم لمعزولون عن دين الّله، قد ضلّوا وأضلّوا، فأعمالهم التي يعملونها كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف، لا يقدرون مما كسبوا على شيء، ذلك هو الضلال البعيد"(٤٢).

المبحث الثالث

الإصلاح في فكر الإمام الباقر "قراءة سياسية معاصرة"

إن حركة الإمام الصادق هي الامتداد الطبيعي لحركة أبيه وجدوه. فقد أتجه علي بن الحسين عليه السلام بعد فاجعة كربلاء ولعبة قطع الرؤوس إلى القيام بشؤون الإمامة الروحية كالعبادة ونشر الأحكام والأخلاق وتفقد الفقراء والمساكين وإحياء المجالس الحسينية للحفاظ على معين الثورة الحسينية المقدسة، فكوّن مدرسة فقه وحديث من التابعين والموالين. وقد ساهم الباقر عليه السلام في تطوير مدرسة أبيه لتصبح جامعة أهل البيت في الفقه والحديث، فضلاً عن ذلك فقد عمد الإمام الباقر عليه السلام إلى إصلاح واقع الأمة الإسلامية عن طريق سياسته التي اتبعها في الإصلاح السياسي والاجتماعي والاقتصادي والفكري بعيداً عن مسك السلطة.

إن اقصاه أهل البيت عليهم السلام عن موقع القيادة وإمامة المسلمين أدى الى الانحراف في جميع مجالات الحياة وترك تأثيره السلبي على جميع مقومات الشخصية، في الفكر والعاطفة والسلوك، فعمّ انحراف الدولة والامة معا، كما عمّ التصورات والمبادئ والموازين والقيم والاوضاع والتقاليد والعلاقات والممارسات العملية جميعا. نعم لقد تغلغل الانحراف في ميدان النفس وميدان الحياة الاجتماعية وتحوّل الاسلام الى طقوس ميتة لا تمت إلى الواقع بصلة، خلافا لأهداف الإسلام الذي جاء من اجل تقرير المنهج الالهي في الحياة فانحسر عن الكثير من تلك المجالات ليصبح علاقة فردية بين الانسان وخالقه فحسب. ولهذا انتشر الانحراف الفكري والعقائدي في المجتمع ابان تصدي الامام محمد الباقر عليه السلام لإمامة الامة كما انتشر الانحراف السياسي والاخلاقي عصره امامته عليه السلام، فضلا عن انتشار الانحراف في الميدان الاقتصادي، إذ تصرف الحكام الامويين بالأموال العامة وكأنها ملك شخصي لهم، فكانوا ينفقونها حسب رغباتهم واهوائهم على ملذاتهم وشهواتهم وكان للجواري والمغنيين نصيب كبير في بيت المال. على الرغم من انحراف الحكام واجهزتهم الادارية والسياسية عن المبادئ الثابتة التي أرسى دعائمها القرآن الكريم والسنّة النبوية، إلا أن القاعدة الفكرية والتشريعية للدولة بقيت متبناة من قبل الحاكم واجهزته في مظاهرها العامة، وعلى ضوء ذلك فان دور الامام محمد الباقر عليه السلام كان دورا اصلاحيا لإعادة الحاكم واجهزته واعادة الامة الى الاستقامة في العقيدة والشريعة، وجعل الاسلام بمفاهيمه وقيمه هو الحاكم على

الافكار والعواطف والمواقف. وكان اسلوب الامام الباقر عليه السلام الاصلاحي متفاوتا تبعا لتفاوت الظروف التي كانت تحيط به، وبالحكم القائم، وبالأمة المسلمة.

لقد كان الإمام عليه السلام مقصد العلماء من كل بلاد العالم الاسلامي، وما زار المدينة احد، إلا عرّج على بيته يأخذ من فضائله وعلومه، وكان يقصده كبار رجالات الفقه الاسلامي، كسفيان الثوري وسفيان بن عيينه، وأبي حنيفة. وكان دور الإمام محمد الباقر عليه السلام في الاصلاح يتركّز على اتجاهين متزامنين:

الاتجاه الاول: التحرك في اوساط الامة وعموم الناس بما فيهم المسلمون واصحاب الديانات الاخرى فضلا عن التحرك على الحاكم واجهزتهم لإعادتهم الى خط الاستقامة او الحدّ من انحرافاتهم وحصرها في نطاق محدود.

الاتجاه الثاني: بناء الجماعة الصالحة لتقوم بدورها في اصلاح الاوضاع العامة للامة وللدولة طبقا للأسس والقواعد الثابتة التي أرسى دعائمها أهل البيت عليهم السلام بما ينسجم مع القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة.

وتركز محاور الحركة الاصلاحية العامة للإمام الباقر عليه السلام على الاصلاح السياسي والاجتماعي والاقتصادي، فضلاً عن الإصلاح الفكري والعقائدي والرد على الافكار والعقائد الهدامة والمذاهب المنحرفة والحوار مع المذاهب والرموز المنحرفة وإدانة فقهاء البلاط والدعوة الى اخذ الفكر من مصادره النقية ونشر علوم أهل البيت .عليهم السلام ولهذا سيتحرك الإمام الباقر عليه السلام لتأسيس مجتمع على أساس ديني خارج إطار الدولة وداخلها في نفس الوقت. وسيبعث من أجل ذلك جامعة تساعده في نشر الوعي الثقافي بين مختلف أفراده من مختلف الأمصار والأعمار، وسيتعلمون فيها الأخلاق والأدب والتربية والحقوق الخاصة والعامة والحقوق المشتركة، ومن ثم الحقوق الإنسانية التي أرسى معالمها الفكرية أبيه الإمام زين العابدين[٤٣]. وسنتناول إصلاح الإمام الباقر في عدة مطالب منها:

المطلب الأول

الإصلاح السياسي

لقد استثمر الامام الباقر عليه السلام الانفراج السياسي النسبي من اجل بناء وتوسعة القاعدة

الشعبية وتسليحها بالفكر السياسي السليم المنسجم مع رؤية أهل البيت عليهم السلام وتعبئة الطاقات لاتخاذ الموقف المناسب في الوقت المناسب، ولهذا لم تنطلق اي ثورة علوية في عهده، لعدم اكتمال شروطها من حيث العدة والعدد. وكان الإمام محمد الباقر عليه السلام، يقدّم للامة المفاهيم والافكار السياسية الاساسية مع الحيطة والحذر، وكانت له مواقف سياسية صريحة من بعض الحكام لإعادتهم الى جادة الصواب.

لقد عانى الامام الباقر عليه السلام، من ظلم الامويين منذ أن ولد وحتى استشهد ماعدا فترة قصيرة جدا هي مدة خلافة عمر بن عبدالعزيز التي ناهزت السنتين والنصف. فعاصر أشد ادوار الظلم الاموي كما اشرف على افول هذا التيار الجاهلي وتجرع من غصص الآلام ما ينفرد به مثله وعيا وعظمة وكمالا، ولكنه استطاع ان يربي اعداد كثيرة من الفقهاء والعلماء والمفسرين، إذ كان المسلمون يقصدونه من شتى بقاع العالم الاسلامي وقد دانوا له بالفضل بشكل لا نظير له، ولم يعش منعزلا عن احداث الساحة الاسلامية، وانما ساهم بشكل ايجابي في توعية الجماهير وتحريك ضمائرها وسعى لرفع شانها واحياء كرامتها بالبذل المادي والعطاء المعنوي كآبائه الكرام واجداده العظام ولم يقصر عنهم عبادة وتقوى وصبرا واخلاصا وجهادا فكان قدوة شامخة للجيل الذي عاصره ولكل الاجيال التي تلته، وكان حقا رائد النهضة الاسلامية والفكر الاسلامي الاصيل(٤٤). استثمر الإمام الباقر عليه السلام بعض أجواء الانفراج السياسيّ النسبيّ لبناء وتوسعة القاعدة الشعبيّة، وتسليحها بالفكر السياسيّ السليم، وتجلّى دوره الإصلاحيّ في الممارسات التالية:

أولاً: الدعوة إلى تطبيق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: لكونهما يحرّران الإنسان والمجتمع من جميع ألوان الانحراف في الفكر والعاطفة والسلوك، يقول عليه السلام: "إنّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سبيل الأنبياء ومنهاج الصالحين، وفريضة عظيمة بها تُقام الفرائض وتأمن المذاهب... وتُردّ المظالم وتعمر الأرض، ويُنتصف بها من الأعداء"(٤٥). من هنا جاءت تأكيدات الإمام عليه السلام على هذه الفريضة التي جعلها شاملة لجميع مرافق الحياة الإنسانية إذ قال: "إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سبيل الأنبياء ومنهاج الصالحين، فريضة عظيمة بها تقام الفرائض، وتأمن المذاهب، وتحلّ المكاسب، وتردّ المظالم وتعمّر الأرض، وينتصف من الأعداء ويستقيم الأمر، فأنكروا بقلوبكم، والفظوا بألسنتكم، وصكّوا بها جباههم، ولا تخافوا في الله لومة لائم". وحذّر عليه السلام من مغبّة التخليّ عن

المسؤولية، ومداهنة المنحرفين حكّاماً كانوا أم من سائر أفراد الأمة فقال: "أوحى الله تعالى إلى شعيب النبي عليه السلام إنّي لمعذّب من قومك مائة ألف: أربعين ألفاً من شرارهم، وستين ألفاً من خيارهم، فقال: يا ربّ هؤلاء الأشرار، فما بال الأخيار؟ فأوحى الله عز وجل إليه: إنهم داهنوا أهل المعاصي، ولم يغضبوا لغضبي". وحث عليه السلام على هذه المسؤولية وبيّن آثار التخلي عنها فقال: ((الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر خلقان من خلق الله عزّ وجلّ، فمن نصرهما أعزّه الله، ومن خذلهما خذله الله عز وجل))(٤٦).

ثانياً: لإصلاح السياسي بموازاة السلطة الأموية: يعترف الإمام الصادق فعليا أو واقعياً بالسلطة القائمة ولا يطالب المجتمع الإسلامي بهذا الاعتراف فحسب بل يدفعه ويلزمه بذلك، ولكن لا إلى درجة الانسحاق والذوبان فيها بل ضمن حدود وشروط "لا تذلوا رقابكم بترك طاعة السلطان، فإن كان عادلاً فاسألوا الله بقائه، وإن كان غير ذلك فاسألوا الله إصلاحه". وهذا لا يعني إطلاق الولاية للحاكم أو للسلطة السياسية بقدر ما هي دعوة للخضوع إلى السلطان بما هو سلطنة وربما يقترب هذا المفهوم من السلطة العامة أو السيادة العامة التي تملكها الدولة كشخص معنوي لديه حقوق وعليه التزامات لا علاقة بشرعية أو عدم شرعية الأشخاص الماديين القائمين عليها(٤٧).

ثالثا: نشر المفاهيم السياسيّة السليمة: وجّه الإمام عليه السلام الأنظار إلى دور أهل البيت عليهم السلام في قيادة الأمّة نحو الرشاد فقال: "نحن ولاة أمر الله وخزائن علم الله، وورثة وحي الله، وحملة كتاب الله، وطاعتنا فريضة، وحبّنا إيمان، وبغضنا كفر، محبّنا في الجنّة، ومبغضنا في النار". وحذّر الأمّة من الابتعاد عن نهج أهل البيت عليهم السلام، وحثّ على نصرتهم(٤٨)، فقال: "من أعاننا بلسانه على عدوّنا أنطقه الله بحجته يوم موقفه بين يديه عزّ وجلّ". ووضّح عليه السلام حدود الموالاة لهم، وبيّن المعيار لمعرفة الموالاة والموالين في حالة التباس المفاهيم واختلاط المعايير، فقال: "أمّا محبتنا، فيخلص الحبّ لنا كما يخلص الذهب بالنّار لا كدر فيه، من أراد أن يعلم حبّنا، فليمتحن قلبه فإن شاركه في حبّنا حبّ عدوّنا، فليس منّا ولسنا منه". وأكّد على أنّ طرق تولّي الإمام لمنصب الإمامة منحصرة بالنصّ والوصية، ولا عبرة بما هو الشائع من البيعة والعهد والغلبة، ومما جاء في ذلك قوله عليه السلام: "كل من دان الله عزّ وجلّ بعبادة يجهد فيها نفسه ولا إمام له من الله فسعيه غير مقبول، وهو ضالّ متحيّر، والله شانئ لأعماله". وبيّن مواصفات الإمام لكي تتمكن الأُمة من التمييز والتشخيص في خضم

الأحداث التي حُرِّفت فيها المفاهيم وزُوِّرت فيها الحقائق فقال عليه السلام: «إن الإمامة لا تصلح إلاّ لرجل فيه ثلاث خصال: ورع يحجزه عن المحارم، وحلم يملك به غضبه، وحسن الخلافة على من ولي، حتى يكون له كالوالد الرحيم". ورسم قاعدة كلية في أساسيات حقوق وواجبات الإمام تجاه الأمة، لكي تدرك الأمة مدى قرب وبعد الحكّام عن أداء مسؤوليتهم، فقال عليه السلام: "حقّه عليهم أن يسمعوا ويطيعوا... وحقهم عليه: يقسم بينهم بالسوية ويعدل في الرعيّة". وفي خضم الأحداث الصاخبة وما طرأ من تشويه وتدليس في الحقائق، بيّن عليه السلام المفهوم الحقيقي للتشيع، لكي لا يعطي مبرّراً للحكّام الأُمويين لتشويه سمعة أنصار أهل البيت (عم) في المحافل المختلفة، واستغلال بعض السلبيات للطعن في مفاهيم الولاء والتولي، فقال عليه السلام: "فو الله ما شيعتنا إلاّ من اتقى الله وأطاعه، وما كانوا يعرفون إلاّ بالتواضع، والتخشع، والأمانة، وكثرة ذكر الله، والصوم، والصلاة، والبر بالوالدين، والتعاهد للجيران من الفقراء وأهل المسكنة، والغارمين، والأيتام، وصدق الحديث وتلاوة القرآن، وكفّ الألسن عن الناس إلاّ من خير، وكانوا أُمناء عشائرهم في الأشياء". والتشيّع ليس ادعاءً بل هو ممارسة عملية محسوسة في الواقع، والشيعي هو مثال التديّن والإخلاص والطّاعة لله تعالى. ولم يكتف الإمام الباقر عليه السلام ببيان المظاهر الخارجية لمن ينتسب لمدرسة أهل البيت عليهم السلام وإنّما تعدّى ذلك إلى مجموعة من المعالم الفريدة لشيعتهم، فقال: "إنّما شيعة علي عليه السلام الشاحبون الناحلون الذابلون، ذابلة شفاههم، خميصة بطونهم، متغيّرة ألوانهم، مصفرّة وجوههم، إذا جنّهم الليل اتّخذوا الأرض فراشاً، واستقبلوا الأرض بجباههم، كثير سجودهم، كثيرة دموعهم، كثير دعاؤهم، كثير بكاؤهم، يفرح الناس وهم محزونون"(٤٩).

رابعاً: الدعوة إلى مقاطعة الحكم القائم: فبالإضافة إلى كشف الإمام عليه السلام حقيقة الحكم الأمويّ، والجرائم الّتي ارتكبها بقوله: "... وكان عِظم ذلك وكبره زمن معاوية بعد موت الحسن، فقُتلت شيعتنا بكلّ بلدة، وقطعت الأيدي... ثمّ لم يزل البلاء يشتدّ ويزداد إلى زمان عبيد الله بن زياد قاتل الحسين عليه السلام"، فقد دع عليه السلام إلى مقاطعة الحكم الجائر ونهى عن إسناده، فقال ـ في معرض جوابه عن العمل معهم ـ: "ولا مدّة قلم، إنّ أحدهم لا يصيب من دنياهم شيئاً إلّا أصابوا من دينه مثله"(٥٠). ووضّح أساسيات التعامل مع الحكام الجائرين والفاسقين بقوله: "لا دين لمن دان بطاعة من عصى الله". وأكد عليه السلام على أن تكون العلاقة معهم علاقة التوجيه والإرشاد، والقيام بأداء مسؤولية الوعظ فقال: "من مشى الى سلطان جائر، فأمره

بتقوى الله، وخوّفه ووعظه كان له مثل أجر الثقلين من الجن والإنس، ومثل أعمالهم". واستثنى عليه السلام المواقف التي تتخذ من أجل مصلحة الإسلام الكبرى، فجوّز إسنادهم بالسلاح إن كان القتال مع أعداء الإسلام؛ لأنهم يدفعون بالسلاح العدو المشترك، قال عليه السلام لمن كان يحمل إليهم السلاح: "احمل إليهم، فإنّ الله يدفع بهم عدونّا وعدوّكم - يعني الروم - وبعهم، فإذا كانت الحرب بيننا فلا تحملوا". وقال عليه السلام في حق حكّام الجور: "إن أئمة الجور وأتباعهم لمعزولون عن دين الله والحقّ، قد ضلّوا بأعمالهم التي يعملونها"(٥١).

خامساً: موقفه من الجهاد المسلّح: وقف الإمام عليه السلام موقف الحياد من الثورات التي قادها الخوارج، فلم يصدر منه تأييد ولا معارضة، لكي لا يستثمر قادة الثورات أو الحكّام موقف الإمام عليه السلام لصالحهم، ولكي تستمر روح الثورة في النفوس. وفي عهده عليه السلام لم تنطلق أي ثورة علوية يقودها أحد أهل البيت عليهم السلام أو أحد أنصارهم، لأنّ الإمام عليه السلام كان مشغولاً ببناء وتوسعة القاعدة الشعبية، لكي تنطلق فيما بعد، أي بعد إكمال العدّة والعدد، وكان عليه السلام يوجّه الأنظار إلى ثورة أخيه زيد التي أخبر أنها ستنطلق في المستقبل القريب.

سادساً: مواقفه المباشرة من الحكّام المنحرفين: إنّ دور الإمام الحقيقي هو دور القدوة، ومن أهم المسؤوليات الملقاة على عاتقه إصلاح الحاكم والأمة معاً، والقضاء على الانحراف في مهده. أو الحيلولة دون التمادي فيه، وهذا الدور تختلف أساليبه وبرامجه تبعاً للعوامل والظروف السياسية المحيطة بالإمام، وتتغيّر المواقف تبعاً للمقومات التالية:

أ. المصلحة الإسلامية العامة.

ب. المصلحة الإسلامية الخاصة، والتي تتعلق بالحفاظ على منهج أهل البيت عليهم السلام ورفده بالعناصر النزيهة، لضمان استمرار حركته في الأمة.

ت. لظروف العامة والخاصة من حيث قوة الحاكم، وقوة القاعدة الشعبية لأهل البيت عليهم السلام.

سابعاً: فضح الواقع الأموي: كشف الإمام عليه السلام حقيقة الحكم الأموي وكيفية وصوله إلى الحكم، وما مارسه من أعمال لإدامة السيطرة على رقاب المسلمين، ووضّح الجرائم التي ارتكبها سلف هؤلاء الحكّام في حق أهل البيت عليهم السلام وأنصارهم، فبعد أن بيّن ملابسات الخلافة، وكيفية الاستحواذ عليها وإقصاء أهل البيت عليهم السلام عن موقعهم فيها، قال: "وكان

عظم ذلك وكبره زمن معاوية بعد موت الحسن عليه السلام فَقُتِلَتْ شيعتنا بكل بلدة، وقطعت الأيدي والأرجل على الظنّة، وكان من يذكر بحبّنا والانقطاع إلينا سُجِن أو نُهِبَ ماله، أو هُدِمَت داره، ثم لم يزل البلاء يشتد ويزداد إلى زمان عبيد الله بن زياد قاتل الحسين عليه السلام ثم جاء الحجّاج فقتلهم كل قتلة، وأخذهم بكل ظنٍ وتهمة، حتى أنّ الرجل ليقال له: زنديق أو كافر، أحبُّ اليه من أن يقال: شيعة عليّ، وحتى صار الرجل الذي يذكر بالخير ـ ولعلّه يكون ورعاً صدوقاً ـ يحدّث بأحاديث عظيمة عجيبة، من تفضيل بعض من قد سَلَفَ من الولاة، ولم يخلق الله تعالى شيئاً منها، ولا كانت ولا وقعت وهو يحسب أنها حقٌّ لكثرة من قد رواها ممّن لم يعرف بكذب، ولا بقلة ورع"(٥٢).

المطلب الثاني

الإصلاح الاقتصادي

لم يكن الإمام عليه السلام على رأس سلطة حتى يستطيع إصلاح الأوضاع الاقتصادية إصلاحاً عملياً وجذريّاً، ولذا اقتصر عليه السلام على نشر المفاهيم الإسلامية المرتبطة بالحياة الاقتصادية السليمة متمثّلة في النظام الاقتصادي الإسلامي، والتي تعصم مراعاتها الإنسان والمجتمع من الانحراف الاقتصادي التي من أسبابها: الانسياق وراء إشباع الشهوات إشباعاً مخلاً بالتوازن الاقتصادي، فحدّد الإمام عليه السلام الأهداف المتوخاة من التصرّف بالأموال، إذ جعل الله المال وسيلة لتحقيق الهدف الذي خلق الإنسان من أجله، وهو الوصول إلى عبادة الله تعالى، وتطبيق منهجه في الحياة، قال عليه السلام: "نعم العون الدنيا على طلب الآخرة"(٥٣). وأوضح الأهداف المشروعة التي يبتغي طلب المال من أجلها، فقال عليه السلام: "من طلب الرزق في الدنيا استعفافاً عن الناس، وتوسيعاً على أهله، وتعطفاً على جاره، لقي الله عزّ وجلّ يوم القيامة ووجهه مثل القمر ليلة البدر"، واستعان عليه السلام بالأحاديث الشريفة الواردة في ضرورة المشروعية في التصرفات الاقتصادية، فروى عن رسول الله صلى الله عليه وآله انه قال: "العبادة سبعون جزءاً أفضلها طلب الحلال". وأكّد عليه السلام على حرمة جملة من التصرفات المالية كالتطفيف في المكيال، إذ قال عليه السلام: " أُنْزِل في الكيل: (ويل للمطففين)، ولم يجعل الويل لأحد حتى يسميه كافراً". كما دعا عليه السلام إلى استصلاح المال وتنمية الثروة بشكل صحيح بقوله عليه السلام: "من المروءة استصلاح المال". وقد بين الإمام الباقر عليه السلام الخطوط العريضة في

الإصلاح الاقتصادي، وهي كالآتي:

أولا: ضرورة تحسين المعيشة: إذ دعا الامام الباقر عليه السلام إلى الجد والسعي في طلب المعيشة لينعم الانسان مع عائلته بالرفاه والرخاء، ويتجنب الفقر والبؤس، قال عليه السلام: "من تسلح لطلب المعيشة خفت مؤنته، ورخا باله، ونعم عيالة.." وقال أيضاً "بسعة الخلق تطيب المعيشة. إن التسلح لطلب المعيشة والجد فيها، يوفر للإنسان الحياة الاقتصادية الحافلة بالرخاء والنعم، وهدوء البال والاستقرار، وأن الحياة إنما تطيب وتنعم اذا كانت في ظلال الرخاء لا في ظلال البؤس والشقاء.

ثانياً: التحذير من الكسل: حذر فيه الامام أبو جعفر عليه السلام من الكسل؛ لأنه موجب لشل الحركة الاقتصادية وتجميد الطاقات الانسانية، ونشر الفساد في الأرض، ويقول عليه السلام "الكسل يضر بالدين والدنيا". أما الكسل يضر بالدين فأنه يمنع من ذكر الله واداء فرائضه وواجباته؛ لأن الكسول يتقاعس عن الاتيان بالواجبات الدينية، وأي ضرر اعظم من هذا الضرر؟ واما إنه يضر بالدنيا؛ لأنه الكسول دائماً يميل إلى الخمول، ويرغب أن يعيش حياة بائسة تسودها الحاجة والفقر ولا يدخل في ميادين العمل التي تضمن له الرخاء والسعادة. وحذر عليه السلام بعض ابناءه من الكسل فقال له: "إياك والكسل والضجر فانهما مفتاح كل شر، من كسل لم يؤد حقاً، ومن ضجر لم يصبر على حق". إن الاسلام بكل اعتزاز يريد انطلاق الانسان في هذه الحياة ويريده أن يعمل وينتج كما يريد له أن يؤدي حقوق الناس، ويرتبط معهم ويؤدي ما عليه من الواجبات، ومن الطبيعي أن الانسان اذا صيب بداء الكسل فأنه يهمل حقوق الله وحقوق الناس (٥٤).

وقدّم إشباع حاجات المسلمين وسد ثغرات حياتهم على أهم العبادات المستحبّة وهو الحج تطوعاً، فقال عليه السلام: "لأن أحجّ حجة أحبّ إليّ من أن أعتق رقبة ورقبة ـ حتى انتهى إلى سبعين ـ، ولأن أعول أهل بيت من المسلمين، أشبع جوعتهم وأكسو عورتهم وأكفّ وجوههم عن الناس أحبّ إليّ من أن أحجّ حجة وحجة ـ حتى انتهى إلى عشر وعشر وعشر ومثلها حتى انتهى إلى سبعين". ودعا عليه السلام إلى الترفّع عن الحرص والطمع. إذ روى عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنّه قال: "لن تموت نفس حتّى تستكمل رزقها، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب، ولا يحمل أحدكم استبطاء شيء من الرزق أن يطلبه بغير حلّه، فإنّه لا يدرك ما عند

الله إلاّ بطاعته". ووجّه الأنظار إلى الآثار السلبية للحرص فقال: " مثل الحريص على الدنيا، كمثل دودة القزّ، كلّما ازدادت على نفسها لفّا، كان أبعد لها من الخروج حتى تموت غمّاً". وأكّد على زوال المال ما دام الإنسان مخلوقاً للآخرة ومعرّضاً للفناء فقال: "ملك ينادي كل يوم: ابنَ آدم، لِدْ للموت، واجمع للفناء، وابن للخراب". وكان عليه السلام يحثّ على القناعة؛ لأنها إحدى مقدمات السعادة الروحية، وقد تجلّى ذلك في سلوكه وقوله عليه السلام: "من قنع بما أوتي قرّت عينه". ودعا إلى مراعاة القصد والوسطية وتجنّب الإفراط والتفريط في الطرف والإنفاق في مختلف الظروف واعتبره من المنجيات، فقال عليه السلام: "أمّا المنجيات فخوف الله في السر والعلانية، والقصد في الغنى والفقر"[٥٥].

ثالثاً: مقته لتارك العمل: كان الإمام الباقر عليه السلام يمقت تارك العمل؛ لأنه يؤدي إلى ضعف الانتاج، وزيادة البطالة وتفشي الازمات الاقتصادية في البلاد، ويقول عليه السلام: "أني اجدني امقت الرجل يتعذر عليه المكاسب فيستلقي على قفاه، ويقول: اللهم ارزقني، ويدع أن ينتشر في الارض، ويتلمس من فضل الله والذرة تخرج من جحرها تلتمس رزقه".

رابعاً: العمل على طاعة الله: كان الامام الباقر عليه السلام يرى أن في العمل طاعة الله، فكان عليه السلام يعمل بنفسه في اصلاح ارض له. إن العلم طاعة من طاعات الله - على حد تعبير الامام- لأنه به كف النفس، وكف العيال من الاحتياج عما في ايدي الناس[٥٦].

كما حدّد الإمام عليه السلام لكل إنسان حقّه، وحذّر من الاعتداء على أموال الآخرين؛ لأنها تؤدي إلى الخلل الاقتصادي فضلاً عمّا لها من تأثيرات سلبية أُخرى على المستقبل الأُخروي للفرد والمجتمع، نلاحظ ذلك في قوله عليه السلام: "من أصاب مالاً من أربع لم يقبل منه أربع: من أصاب مالاً من غلول أو ربا أو خيانة أو سرقة، لم يقبل منه في زكاة ولا صدقة ولا في حجّ ولا في عمرة".

خامساً: الالتزام بالزكاة: من أجل تحقيق التوازن الاقتصادي، ورفع المستوى المعاشي لعموم الناس دعا عليه السلام إلى الالتزام بالإنفاق الواجب، فقال: "إن الله تبارك وتعالى قرن الزكاة بالصلاة... فمن أقام الصلاة، ولم يؤت الزكاة، فكأنه لم يقم الصلاة". ولا يتحقق التوازن الاقتصادي ولا التكافل الاجتماعي إلاّ باشتراك جميع الناس في ممارسات مكثّفة لرفع المستوى الاقتصادي لجميع الفقراء والمعوزين، من خلال القيام بالإيثار والإنفاق

التطوعي مضافاً إلى أداء الحقّ الشرعي الواجب؛ لذا حث عليه السلام على الإحسان وأداء أعمال البر والصدقة فقال: "البرّ والصدقة ينفيان الفقر ويزيدان في العمر، ويدفعان سبعين ميتة سوء". وحدّد الإمام عليه السلام موارد الإنفاق المنسجمة مع الشريعة الإسلامية، وأثبت انحراف الأُسلوب الذي قام به الحكّام حيث قاموا بتوزيع الأموال حسب أهوائهم ورغباتهم دون التقيد بالقيود التي وضعها المنهج الإسلامي. وكان عليه السلام يقوم بإنفاق ما يحصل عليه على الفقراء والمعوزين لتقتدي به الأمة، وتعرف انحراف الممارسات المالية التي كان يقوم بها الحكام والمخالفة للأسس الإسلامية والقواعد الثابتة للإنفاق(٥٧).

المطلب الثالث

الإصلاح الفكريّ والعقائديّ

من الأزمات التي خلّفتها سيرة الحكّام السابقين هي أزمة ارتباك المفاهيم وما رافقها من تقليد وسطحية في الفكر، فلم تتجل حقيقة التصور الاسلامي عند الكثير من المسلمين لكثرة التيارات الهدّامة ونشاطها في تحريف المفاهيم السليمة وتزييف الحقائق، فكان دور الإمام عليه السلام هو حمل النفوس على التمحيص لتمييز ما هو أصيل من العقيدة عمّا هو زيف، وعلى تحكيم الأفكار والمفاهيم الأصيلة في عالم الضمير وعالم السلوك على حد سواء، والاستقامة على المنهج الذي يريده الله تعالى للإنسان(٥٨). وقد مارس الإمام عليه السلام عدة نشاطات لإصلاح الأفكار والعقائد، بعد نشوء التيّارات السياسيّة والفكريّة المنحرفة تطلّب الأمر إصلاحاً فكريّاً وعقائديّاً يتراوح بين ردّ الشبهات والأفكار المنحرفة من جهة، وبيان البديل الصالح والفكر السليم من جهةٍ أخرى، وتمّ ذلك بأساليب عديدة، منها(٥٩):

١- المواجهة العلنيّة للحركات المنحرفة: فقد واجه الإمام عليه السلام حركة الغلاة الّتي نشطت بقيادة المغيرة بن سعيد العجلي، فكان يلعنهم أمام الناس، وحركة المرجئة الذين قال عليه السلام فيهم: "اللّهم العن المرجئة فإنّهم أعداؤنا في الدنيا والآخرة"، وحركة المفوّضة والمجبّرة. إذ كان عليه السلام يحذّر منهما بقوله: "إيّاك أن تقول بالتفويض فإنّ الله عزّ وجلّ لم يفوّض الأمر إلى خلقه وهناً وضعفاً، ولا أجبرهم على معاصيه ظلماً". وجرت بينه عليه السلام وبين أرباب الأديان والمذاهب مناظرات متعدّدة.

٢- محاسبة الفقهاء المخالفين: فحاسب أمثال أبي حنيفة لقوله بالقياس، وفي ذلك يقول

محمّد أبو زهرة: "تتبيّن إمامة الباقر عليه السلام للعلماء، بمحاسبتهم على ما يبدو منهم، وكأنّه الرئيس يحاكم مرؤوسيه ليحملهم على الجادّة، وهم يقبلون طائعين تلك الرئاسة".

٣- نشر حديث الرسول صلى الله عليه وآله والأئمّة عليهم السلام.

٤- الدعوة إلى أخذ العلم من مصادره النقيّة، إذ حذّر عليه السلام من الإفتاء بالرأي وقال لبعض من سأله: "شرّقا وغرّبا فلا تجدان علماً صحيحاً إلّا شيئاً خرج من عندنا".

٥- الردّ على الافكار والعقائد الهدّامة والمذاهب المنحرفة. إذ وجد المنحرفون لأفكارهم وعقائدهم الهدّامة أوساطاً تتقبّلها وتروّج لها ـ جهلاً أو طمعاً أو تآمراً على الإسلام الخالد ـ وفي عهد الإمام الباقر عليه السلام نشطت حركة الغلاة بقيادة المغيرة ابن سعيد العجلي.

تأسيس المدرسة الفقهية النموذجية. لقد جهد الإمام الباقر وولده الصادق عليه السلام على نشر الفقه الإسلامي وتبنّيا نشره بصورة إيجابية في وقت كان المجتمع الإسلامي غارقاً في الأحداث والاضطرابات السياسية، إذ أهملت الحكومات في تلك العصور الشؤون الدينية إهمالاً تاماً، حتى لم تعد الشعوب الإسلامية تفقه من أمور دينها القليل ولا الكثير، يقول الدكتور علي حسن: "وقد أدى تتبعنا للنصوص التاريخية إلى أمثلة كثيرة تدل على هذه الظاهرة ـ أي إهمال الشؤون الدينية ـ التي كانت تسود القرن الأول سواء لدى الحكام أو العلماء أو الشعب، ونعني بها عدم المعرفة بشؤون الدين، والتأرجح وعدم الجزم والقطع فيها حتى في العبادات، فمن ذلك ما روي أن ابن عباس خطب في آخر شهر رمضان على منبر البصرة فقال: اخرجوا صدقة صومكم فكان الناس لم يعلموا، فقال: من ها هنا من أهل المدينة؟ فقوموا إلى إخوانكم فعلموهم، فإنهم لا يعلمون فرض رسول الله صلى الله عليه وآله. فأهل البلاد الإسلامية لم يعرفوا شؤون دينهم معرفة كافية، وقد كان يوجد في بلاد الشام من لا يعرف عدد الصلوات المفروضة، حتى راحوا يسألون الصحابة عن ذلك. إن الدور المشرق الذي قام به الإمام الباقر والصادق عليه السلام في نشر الفقه وبيان أحكام شريعة الله كان من أعظم الخدمات التي قدّماها للعالم الإسلامي. وسعى إلى الأخذ من علومهما أبناء الصحابة والتابعون، ورؤساء المذاهب الإسلامية كأبي حنيفة ومالك وغيرهما، وتخرج على يد الإمام

أبي جعفر عليه السلام جمهرة كبيرة من الفقهاء كزرارة بن اعين، ومحمد بن مسلم وابان ابن تغلب، وإليهم يرجع الفضل في تدوين أحاديث الإمام عليه السلام وقد أصبحوا من مراجع الفتيا بين المسلمين، وبذلك أعاد الإمام أبو جعفر عليه السلام للإسلام نضارته وحافظ على ثرواته الدينية من الضياع والضمور. ومن الجدير بالذكر أن الشيعة هم أول من سبق إلى تدوين الفقه. فقد قال مصطفى عبد الرازق: "ومن المعقول أن يكون النزوع إلى تدوين الفقه كان أسرع إلى الشيعة؛ لأن اعتقادهم العصمة في أئمتهم أو ما يشبه العصمة كان حرياً إلى تدوين أقضيتهم وفتاواهم"(٦٠). وبذلك فقد ساهم الفكر السياسي الشيعي في بناء الصرح الإسلامي، وحافظت على أهم ثرواته.

المطلب الرابع

الإصلاح الاجتماعيّ والأخلاقيّ

بذل الإمام الباقر عليه السلام عناية خاصّة لإصلاح أخلاق أبناء المجتمع الإسلاميّ بدءاً بالمقرّبين منه، ثمّ في سائر الأوساط الاجتماعيّة والمؤسسات الحكوميّة، وذلك عبر أساليب متعدّدة منها(٦١):

١- **توظيف السُنّة النبويّة لإيجاد التغيير:** لأنّها تتضمّن عناصر التغيير الأخلاقيّ والإصلاح الاجتماعيّ. ومن هنا أخذ الإمام عليه السلام يهتم بنشر الحديث الشريف محقّقاً بذلك هدفين مهمّين:

أ - كسر طوق الحظر الّذي كان قد فرضه الحكّام على أبناء الأمّة لإبعادها عن مصدري عزّتها وكمالها وهما سنّة النبيّ صلى الله عليه وآله وسيرته الشريفة.

ب - إيجاد عامل التغيير الأخلاقي معتمداً على تقديس الأمّة لنبيّها العظيم والتأسّي بأخلاقه. ومن أصول التغيير الأخلاقيّ الّذي اعتمده عليه السلام هو تغيير العناصر المؤثّرة في بناء المجتمع كما ورد في الحديث الشريف: "صنفان من أمّتي إذا صلحا صلحت أمّتي، وإذا فسدا فسدت أمتي الفقهاء والأمراء"، ونشر الإمام عليه السلام المفاهيم الأخلاقية فأكد على العفّة والحياء، وحُسْنِ الخلق وإدخال السرور على المؤمنين، وصلة الرحم وغيرها من المفاهيم الّتي برزت في أحاديثه وكلماته .عليه السلام ولم يكتفِ عليه السلام بنشر الأحاديث الشريفة والدعوة إلى تجسيد محتواها في الواقع، وإنّما قام بأداء دور القدوة

في ذلك. فكان عليه السلام يعالج الواقع الفاسد معالجة عمليّة من خلال سيرته الحسنة.

٢- **الدعوة إلى اكتساب مكارم الأخلاق**: كثّف الإمام عليه السلام دعوته إلى إصلاح النفوس واكتساب مكارم الأخلاق لتكون العلامة الفارقة لتعامل المسلمين فيما بينهم، فكان عليه السلام يدعو إلى إفشاء السلام، وهو مظهر من مظاهر الإخاء والودّ والصفاء في العلاقات الاجتماعية، كما دع عليه السلام إلى تطهير اللسان فقال: "قولوا للناس أحسن ما تحبّون أن يقال لكم، فإنّ الله يُبغض اللّعّان السبّاب الطعّان على المؤمنين، الفاحش المتفحّش، السائل الملحف. ويحب الحيي الحليم، العفيف المتعفف". ودعا إلى الارتباط بأهل التقوى وتعميق أواصر العلاقات معهم. وأوضح عليه السلام حقوق المؤمن على المؤمن، وحذّر من ظلم الآخرين أو الإعانة على ظلمهم، ودع عليه السلام إلى مقابلة الإساءة والقطيعة بالإحسان والصلة.

المطلب الخامس

قراءة سياسية معاصرة في فكر الإمام الباقر عليه السلام

من خلال ما تقدم يتبين لنا أو للمتتبع والقارئ لفكر الإمام الباقر عليه السلام بشكل عام، لاسيما فيما يتعلق بالنهج السياسي والإصلاحي الذي اتبعه اتجاه السلطة الأموية وطغيانها، نرى بأن الإمام عليه السلام لم ينتهج سياسة عدائية اتجاه الحكم الأموي، ولم يهدده بثورة أو عصيان مدني أو حركة مسلحة، على الرغم من الدمار والفتنة التي حلت بالدولة الإسلامية آبان الحكم الأموي؛ لأنه لم يسعى إلى القبض أو المسك على السلطة بقدر ما كان يسعى إلى إصلاح اوضاع الدولة الإسلامية بساسة صحيحة ورشيدة وفقاً للقرآن الكريم والسنة النبوية ونهج أهل البيت عليهم السلام. فقد وضع الإمام الباقر عليه السلام قاعدة صلبة في التنظير للرأي والرأي الآخر دون تزمت، وتقبل المجتمع بكل اختلافاته الدينية والسياسية والفكرية، ووضع أسس ثابته في تقبل الآخر والانفتاح على الواقع الإسلامي واستيعاب كل ما فيه من تيارات فكرية ومدارس مخالفة ومناقشتها بكل هدوء من غير أن تصادر الأفكار، أو تلغي الآخر، وقدم لنا درساً في وحدة الثقافة والفكر. وترك لنا الإمام الباقر عليه السلام ثروة فكرية هائلة في الأخلاق والسياسة ومهادنة العدو، تهدف إلى تقويم السلوك الإنساني، وتدعو إلى الأخلاق الحميدة والصفات البشرية الكريمة، وتتجلّى ذلك في الحكم والمواعظ والوصايا والرسائل التربوية والدروس التي

اعطاها الإمام عليه السلام في حل قضايا الأمة المعاصرة وحل مشاكلها السياسية وتقلباتها الاقتصادية وخلط نسيجها واختلافاتها الأيديولوجية. ولهذا تعد الثروة الفكرية التي تركها لنا الإمام الباقر عليه السلام بمثابة مدرسة عامة في النهج الإنساني وتقويم سلوك الافراد وتصحيح لمسارات السلطة والأمة بشكل عام. هذه الثروة من الممكن أن تعاد صياغتها بطريقة معاصرة تلائم طبيعة التطور التكنولوجي والعلمي والسياسي الحاصل في الطبيعة البشرية، بطريقة تلائم الفكر الإنساني العام، لاسيما على صعيد التفكير السياسي والاقتصادي وبناء الدولة.

سلوك الإمام الباقر عليه السلام السياسي والإصلاحي بشكل عام يعطينا تصور واضح عن دور الإمامة أو الخلفية أو الحاكم أو حتى المرجع ورجل الدين المعاصر، فالإمام الباقر عليه السلام اعطى تصور واضح عن دوره كإمام ورجل دين ومصلح لشؤون الأمة، فقد جمع عليه السلام بين القيادة الروحية المتمثلة في إمامته (كإمام معصوم مفترض الطاعة) وبين تصديه للزعامة السياسية والدينية والفكرية، وتقمص دوره بحرفيه في إصلاح ما افسدته السلطة الأموية، فقد بدأ ذلك المرشد العملاق والسامي فوق كل ملذات الدنيا والمصلح الذي كرس حياته للإصلاح بمعانيه المختلفة من أجل أن ينعم بعدالة السلطة كإنسان عادي باحث عن عدالة السلطة من أجل كسب حقه المشروع في الحقوق والواجبات. هذا السلوك نحن اليوم كشعب وكدولة بأمس الحاجة إلى ممارسته وتقمصه بشكل يليق بتضحيات أهل البيت وتاريخهم وفكرهم السياسي الذي جمع بين إرادة السماء وعدالتهم الدنيوية، التي أرادوا من خلالها أن تسموا الأمة الإسلامية فوق كل الشبهات. وقد يظهر لنا دور الإمام المعاصر في قراءته السياسية لأوضاع الامة الإسلامية والسياسة الإصلاحية التي اتبعها الإمام الباقر عليه السلام من أجل النهوض بواقع المجتمع الإسلامي وما سببته الدولة الأموية من تفكك في النسيج الاجتماعي والصراع السياسي والضعف الاقتصادي والعسكري والتخلف الفكري والديني والأخلاقي وخشيته من انحدار الدين والدولة بأكملها وجعلها عرضة للتدخلات الأجنبية والأعداء، لهذا فقد اعطانا الإمام عليه السلام طريقة واضحة في معالجة تلك الأخطاء التي ارتكبتها الدولة الأموية آنذاك، متمثلة في المنهج الإصلاحي الذي اتبعه الإمام عليه السلام بموازاة السلطة السياسية. هذا السلوك الإصلاحي من الممكن الاستفادة منه في إصلاح واقع الدولة العراقية التي ما زالت تواجه تحديات كبيرة على مختلف المستويات شبيه بتلك التحديات التي عالجها الإمام الباقر عليه السلام، لاسيما في مجال التدهور السياسي والتدخلات الخارجية والازمة المالية

التي تواجهها الدولة وضعف الاقتصادي والتخطيط، والتخبط العام على مستوى الدولة وإدارة الحكم، فضلا عن ذلك، زيادة حجم التدخلات الاجنبية في الشؤون الداخلية وغياب الرقابة والرشاد الديني الذي ادى إلى زيادة التطرف والغلو وتكفير الآخر وظهور حركات دينية ذات طابع تفكير راديكالي مختلف عن ما موجود من ديانات، فالإضافة إلى زيادة حالات الألحاد في صفوف الشباب وتغيير طريقة تفكيرهم وتعريفهم بالدين الإسلامي بمضامينه الصحيحة التي إرساها الرسول محمد صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام. وهذا يتطلب منا جميعا ومن مختلف شرائح المجتمع من مثقفين واكاديميين ورجال دين أن نقف وقفة جادة من أجل تصيح مسار الدولة العراقية ومعالجة أخطائها التي نمت شيئاً فشيئاً والقضاء على كل تلك السلبيات التي رافقت بناء الدولة العراقية، لاسيما بعد العام ٢٠٠٣ على مختلف المستويات، لاسيما على المستوى السياسي والديني والفكري بشكل عام.

الخاتمة والاستنتاجات:

على الرغم من أن الإمام الباقر عليه السلام لم يولي اهتمام واسع بالفكر السياسي؛ بسبب جبروت السلطة الأموية، إلا أنه اعطى درساً كبيراً فيما يتعلق بالإصلاح السياسي الموازي للسلطة القائمة آنذاك، فقد حافظ الإمام الباقر عليه السلام على التراث الفكري للأئمة عليهم السلام ومثل حلقة وصل مهمة بين الفكر المحمدي الأصيل ومن لحقه من بيت النبوة وبين الفكر السياسي الشيعي في عهد الدولة الأموية والعباسية، حينما نقل هذا الفكر إلى أبنه الإمام جعفر الصادق عليه السلام وعامة المسلمين الذين يناصبون العداء للفكر الأموي، وقد تجلى فكر الإمام عليه السلام على مختلف المستويات، لاسيما على الصعيد السياسي والاقتصادي والاجتماعي والعلمي بشكل عام، على الرغم من المحاولات الأموية في نفي كل ما يعارض جبروتهم ويهدد طغيانهم، إلا أن الإمام الباقر عليه السلام كان رجلاً محنكاً في التعامل مع قوة السلطة الاموية. إذ تعّمد العمل بعيداً عن السلطة القائمة ومعارضتها العلنية؛ لكي يتسنى له نشر ما توارثه من أبائه واجداده وفكر محمد صلى الله عليه وآله واهل بيته عليه السلام إلى عامة الناس، من خلال المدارس والاجتماعات التي اسسها لهذا الغرض. إذ كان ينتقد الامويين بشكل حاد ويصفهم بأنهم خارجين في حكمهم عن الإسلام والمبادئ التي جاء بها النبي محمد صلى الله عليه وآله ويخبر من يترددون عليه بأن السلطة اصبحت ملكاً عضوضاً في عهد الدولة الأموية، وبموازاة ذلك، كان يبين لعامة الناس معنى الإمامة بشقيها السياسي والديني، ويرشدهم إلى الطريق الصحيح من خلال التأكيد على

احقية اهل البيت في قيادة الامة الإسلامية بعد الرسول صلى الله عليه وآله واعطائهم تصور كامل عن الإمام ودوره في قيادة الامة سياسياً ودينياً بعيد عن مغريات السلطة الدنيوية، وقد بين مواصفات الإمام ووجوب معرفته وعظمته وحقه على الناس، فضلاً عن الدور الذي تبوؤه الإمام الباقر عليه السلام في مواجهته أحبار اليهود والمدراس التي انقلبت على مبادئ الفكر السياسي المحمدي مثل المعتزلة والخوارج والمرجئة وغيرهم من الحركات والاحزاب التي ظهرت آنذاك.

أظهر الإمام الباقر عليه السلام قدرة كبير في سياسته الإصلاحية لواقع الأمة الإسلامية، فقد تمكن من وضع الخطوط العريضة في الإصلاح السياسي والاقتصادي والاجتماعي والفكري، على الرغم من مقاطعته للسلطة الأموية. فقد تمكن من اتباع سياسة إصلاحية بعيدة عن العنف واستخدام القوة المسلحة او الثورة ضد الطغاة، وقد انطبعت الحياة السياسية الإسلامية في عهده بطابعين: الاول الانطباع الرسمي المتمثل في الدولة الأموية. الثاني: الانطباع الشعبي المتمثل بالتمرد الشعبي خارج إطار الدولة. ولهذا يصف البعض بأن الإمام الباقر عليه السلام تمكن من احداث انقلاب على المستوى السياسي بمواجهة الدولة الأموية، هذا الانقلاب تمثل الإصلاح الموازي للسلطة القائمة، وهي سياسة سيتبعها اهل البيت عليهم السلام فيما بعد، لاسيما فيما يتعلق بأبنه الإمام جعفر الصادق عليه السلام، الذي تمكن من اكمال ما بده والده، لينتهي بذلك جبروت الدولة الأموية وتبدأ بعدها الدولة العباسية؛ لترسم بذلك ملامح الصراع القادم بين أهل البيت عليهم السلام والسلطة العباسية التي لم تختلف عن سابقتها فيما يتعلق بالسلطة وإدارة الحكم وتجويع المسلمين. وقد خرج البحث ببعض الاستنتاجات الهامة من خلال استقراء فكر الإمام الباقر عليه السلام، وهي:

١- إن الإمام الباقر لم يأتي بجديد فيما يتعلق بالإمامة، إلا أنه حافظ على موروثها المتواتر في أبائه واجداده بعد الرسول محمد صلى الله عليه وآله.

٢- كان الإمام الباقر عليه السلام بارعاً في مجاراة السلطة الأموية، لاسيما فيما يتعلق بسياسته الإصلاحية الموازية للسلطة الأموية.

٣- بيّن الإمام الباقر عليه السلام مفهوم الإمامة بدورها السياسي والروحي، وما يجب أن يقوم به الإمام اتجاه عامة الناس والسلطة أيضاً.

٤- لم ينهمك الإمام عليه السلام في الصراع من أجل السلطة ولا في الحروب والفتن التي شاعت في عهده، إلا أن استطاع أن يواجه كل الحركات الفكرية والأحزاب التي ظهرت في عهده.

٥- اتبع الإمام الباقر عليه السلام اسلوب الحوار والمهادنة وتقبل الرأي والرأي الآخر والنصح مع كل المختلفين معه او من الذين ارادوا الخروج على الإسلام ومبادئه السماوية.

٦- اعطى الإمام الباقر عليه السلام دروساً في الإصلاح الشامل لبنية الدولة من خلال نهجه الإصلاحي على كافة المستويات، لاسيما في المجال السياسي والاقتصادي.

٧- هناك مساحة فكرية كبيرة تركها لنا الإمام الباقر عليه السلام وأهل البيت بشكل عام عليهم السلام من الممكن الاستفادة من نهجهم السياسي والإصلاحي في إصلاح واقعنا المعاصر.

٨- هناك مساحة فكرية واسعة في فكر الإمام الباقر عليه السلام يمكن الاستفادة منها في موائمة فكر الإمام والحداثة أو التطور الحاصل في الجوانب العلمية المختلفة، لاسيما السياسية منها، يمكن التوفيق من خلالها بين الإصالة والتجديد في الفكر الإسلامي.

٩- يبدو بأن للإمام الباقر عليه السلام فكر سياسي مبطن، وهو بحاجة حقيقة إلى تطويره وقراءته بشكل معاصر من خلال أظهاره إلى الساحة الفكرية سواء كان ذلك على المستوى الإسلامي بشكل عام أو كان على المستوى الفكر السياسي الشيعي.

Abstract:-

The research takes political thought at Al-imam Al Baqer (PBUH), his life, time, and of their effectiveness on the patern of political thinking for Al-Imam al baqer(PBUH) ,and his thought about imamate in general and it's role in restoration of the scientific ,cultural,social, economical aspects during the Umayyad Covenant and his resistance for Umayyad and Zubairiya parties ,and intellectual movements such as kharij, Al-Muzdalij, Al-Marajah ,as well as , the research takes the political , economical, intellectual, social,moral reform that parallels the Al-Umayyad authority for Al-Imam al-baqer (PBUH),in addition the request in the third section is about

contemporary political vision of Al-Imam al-baqer in reforming the reality of the Iraqi state,The research ends in the conclusion and the most important conclusions that reached by the researcher to re-read al-imam thought in a contemporary and appropriate way to the political,social and scientific development in Islamic countries, especially the Shiite ones.

هوامش البحث

(١). بدر محمد باقر، الروض الناضر في سيرة الإمام أبي جعفر الباقر، ط١، الكويت، ٢٠٠٧، ص٢٣.

(٢). سيد مهدي آيت اللهي، الإمام محمد الباقر عليه السلام، ترجمة كمال السيد، مؤسسة أنصاريان، إيران، بدون تاريخ، بدون صفحة.

(٣). علي موسى الكعبي، مصدر سبق ذكره، ص ١١.

(٤). لجنة التأليف، أعلام الهداية ج٦ الإمام محمد بن علي الباقر، ط٣، مركز الطباعة للطباعة والنشر للمجمع العالمي لأهل البيت، ١٤٢٧هـ، ص ١٧.

(٥). علي موسى الكعبي، الإمام ابو جعفر الباقر عليه السلام سيرة وتاريخ، دار الرسالة، سلسلة المعارف الإسلامية، بدون تاريخ، ص ص ٨-٩.

(٦). لجنة التأليف، أعلام الهداية ج٦ الإمام محمد بن علي الباقر، ط٣، مركز الطباعة للطباعة والنشر للمجمع العالمي لأهل البيت، ١٤٢٧هـ، ص ٣٣-٣٤.

(٧). باقر شريف القرشي، حياة الإمام الباقر، ج١، ط١، دار البلاغة، بيروت، ١٩٩٣، ص ١٢.

(٨). لجنة التأليف، أعلام الهداية ج٦ الإمام محمد بن علي الباقر، ط٣، مركز الطباعة للطباعة والنشر للمجمع العالمي لأهل البيت، ١٤٢٧هـ، ص ١٢.

(٩). علي موسى الكعبي، الإمام ابو جعفر الباقر عليه السلام سيرة وتاريخ، دار الرسالة، سلسلة المعارف الإسلامية، بدون تاريخ، ص ص ٥٩.

(١٠)..باقر شريف القرشي، حياة الإمام الباقر، ج١، ط١، دار البلاغة، بيروت، ١٩٩٣، ص ١٤.

(١١). حسين ابراهيم الحاج حسن، معالم مشعة من حياة الإمام الباقر: شبكة معلومات دولية، https://goo.gl/u7frRp

(١٢). للمزيد انظر: محمد هاشم البطاط، الفكر السياسي عند الخوارج، رسالة ماجستير، كلية العلوم السياسية، جامعة بغداد، ٢٠١٠.

(١٣). باقر شريف القرشي، حياة الإمام الباقر، ج٢، ط١، دار البلاغة، بيروت، ١٩٩٣، ص وص ٧١-٨٣.

(١٤). أنظر: ماجد حميد لطيف، الفكر السياسي عند المعتزلة، رسالة ماجستير غير منشورة مقدمة إلى كلية العلوم السياسية جامعة بغداد، ٢٠١١.

(١٥). أنظر: محمد ضياء الدين الريس، النظريات السياسية الإسلامية، ط٦، دار التراث، القاهرة، ص٩٧.

(١٦). للمزيد انظر: محمد عمارة، تيارات الفكر الإسلامي، ط٢، دار الشروق، بيروت، ١٩٩٧، ص ٣٣-٤٠.

(١٧). حسين ابراهيم الحاج حسن، معالم مشعة من حياة الإمام الباقر: شبكة معلومات دولية، https://goo.gl/u7frRp

(١٨). المصدر نفسه.

(١٩). شبكة معلومات دولية: https://goo.gl/R6djAu

(٢٠). المجلسي، بحار الأنوار، ج٤٦، ص٣٥٤. نقلا عن: شبكة معلومات دولية https://goo.gl/R6djAu

(٢١). حسين ابراهيم الحاج حسن، معالم مشعة من حياة الإمام الباقر: شبكة معلومات دولية، https://goo.gl/u7frRp

(٢٢). الشهرستاني، الملل والنحل، مجلد ٣، ج١،دار الكتب العلمية، بيروت، بدون تاريخ، ص١١.

(٢٣). محمد ضياء الدين الريس، مصدر سبق ذكره، ص ص ٩٦-٩٧.

(٢٤). المصدر نفسه، ص ص ١٦٨-١٦٩.

(٢٥).فاخر علي، تطور الفكر السياسي لدى الشيعة الإثني عشرية في عصر الغيبة، اطروحة دكتوراه غير منشورة مقدمة إلى مجلس كلية القانون والسياسة، الاكاديمية العربية المفتوحة في الدنمارك، ٢٠٠٨، ص ص ١٢- ١٣.

(٢٦). سورة المائدة، الآية ٦٧. (٢٦)

(٢٧). فاخر علي، مصدر سبق ذكره، ص ٢٥. وأنظر أيضاً: الكليني، الكافي، ج١، ص ص ١٨٥-١٨٦.

(٢٨). علي موسى الكعبي، مصدر سبق ذكره، ص٢٠٠.

(٢٩). باقر شريف القرشي، مصدر سبق ذكره، ص ١٩٦.

(٣٠). علي موسى الكعبي، مصدر سبق ذكره، ص ٢٠١.

(٣١). المصدر نفسه، ص ١٩٧.

(٣٢). سورة النساء، الآية ٥٩.

(٣٣). المصدر نفسه، ص ١٩٩.

(٣٤). المصدر نفسه، ص ص ١٩٩-٢٠٠.

(٣٥). علي موسى الكعبي، مصدر سبق ذكره، ص ص ٣٦.

(٣٦). محمد عمارة، مصدر سبق ذكره، ص٤٣.

(٣٧). عمر بن عبد العزيز، الفكر السياسي للإمام جعفر الصادق عليه السلام، ط١، دار المحجة البيضاء، بيروت، ١٩٩٧، ص١٧. (٣٧)

(٣٨). المصدر نفسه، ص ص ٣٩-٤٠.

(٣٩). عمر بن عبد العزيز، ص ص ٣٦-٣٧.

(٤٠). المصدر نفسه، ص ١٨

(٤١). علي موسى الكعبي، مصدر سبق ذكره، ص ٢٠٤.

(٤٢). المصدر نفسه، ص ص ٢٠٣-٢٠٤.

(٤٣). عمر بن عبد العزيز، مصدر سبق ذكره، ص ٢٠.

(٤٤). الإمام الباقر عليه السلام رائد النهضة الإسلامية والفكر الاصيل، موقع قناة العالم، شبكة معلومات دولية: https://goo.gl/xDpobE

(٤٥). دروس في الإمام الباقر عليه السلام، شبكة معلومات دولية: https://goo.gl/bF6c2V

(٤٦). محاور الحركة الإصلاحية العامّة للإمام الباقر عليه السلام، شبكة معلومات دولية: https://goo.gl/XR7afh

(٤٧). عمر بن عبد العزيز، مصدر سبق ذكره، ص ٣٥.

(٤٨). شبكة الإمام الحسين عليه السلام للتراث والفكر الإسلامي، شبكة معلومات دولية: https://goo.gl/gxGirX

(٤٩). محاور الحركة الإصلاحية العامّة للإمام الباقر عليه السلام، مصدر سبق ذكره.

(٥٠). شبكة الإمامين الحسنيين عليهما السلام للتراث والفكر الإسلامي، شبكة معلومات دولية: https://goo.gl/gxGirX

(٥١). محاور الحركة الإصلاحية العامّة للإمام الباقر عليه السلام، مصدر سبق ذكره.

(٥٢). شبكة معلومات دولية: https://goo.gl/XR7afh

(٥٣). شبكة معلومات دولية: https://goo.gl/R8Cnj5

(٥٤). باقر شريف القرشي، مصدر سبق ذكره، ص ص ٢٣٢-٢٣٣.

(٥٥). شبكة الإمامين الحسنيين عليهما السلام للتراث والفكر الإسلامي، شبكة معلومات دولية: https://goo.gl/gxGirX

(٥٦). باقر شريف القرشي، مصدر سبق ذكره، ص ٢٣٣.

(٥٧). شبكة الإمامين الحسنيين عليهما السلام للتراث والفكر الإسلامي، شبكة معلومات دولية: https://goo.gl/gxGirX

(٥٨). الاصلاح الفكري والعقائدي عند الإمام الباقر عليه السلام، شبكة معلومات دولية: https://goo.gl/CKs8TC

(٥٩). الإمام الباقر عليه السلام والإصلاح في الأمة، شبكة معلومات دولية: https://goo.gl/wtHjYY

(٦٠). محاور الحركة الإصلاحية العامّة للإمام الباقر عليه السلام، شبكة معلومات دولية: https://goo.gl/wcKRSv

(٦١). الإمام الباقر عليه السلام والإصلاح في الأمّة، شبكة المعارف، شبكة معلومات دولية: https://goo.gl/o4qCkR

قائمة المصادر والمراجع

وخير ما نبتدىء به القرآن الكريم

أولا: الكتب

١. باقر شريف القرشي، حياة الإمام الباقر، ج١، ط١، دار البلاغة، بيروت، ١٩٩٣.
٢. باقر شريف القرشي، حياة الإمام الباقر، ج٢، ط١، دار البلاغة، بيروت، ١٩٩٣.
٣. بدر محمد باقر، الروض الناضر في سيرة الإمام أبي جعفر الباقر، ط١، الكويت، ٢٠٠٧.
٤. سيد مهدي آيت اللهي، الإمام محمد الباقر عليه السلام، ترجمة كمال السيد، مؤسسة أنصاريان، إيران، بدون تاريخ.
٥. الشهرستاني، الملل والنحل، مجلد ٣، ج١،دار الكتب العلمية، بيروت، بدون تاريخ .
٦. علي موسى الكعبي، الإمام ابو جعفر الباقر عليه السلام سيرة وتاريخ، دار الرسالة، سلسلة المعارف الإسلامية، بدون تاريخ.
٧. عمر بن عبد العزيز، الفكر السياسي للإمام جعفر الصادق عليه السلام، ط١، دار المحجة البيضاء، بيروت، ١٩٩٧.
٨. فاخر علي، تطور الفكر السياسي لدى الشيعة الإثني عشرية في عصر الغيبة، اطروحة دكتوراه غير منشورة مقدمة إلى مجلس كلية القانون والسياسة، الاكاديمية العربية المفتوحة في الدنمارك، ٢٠٠٨ .
٩. لجنة التأليف، أعلام الهداية ج٦ الإمام محمد بن علي الباقر، ط٣، مركز الطباعة للطباعة والنشر للمجمع العالمي لأهل البيت، ١٤٢٧هـ .
١٠. ماجد حميد لطيف، الفكر السياسي عند المعتزلة، رسالة ماجستير غير منشورة مقدمة إلى كلية العلوم السياسية جامعة بغداد، ٢٠١١.
١١. محمد ضياء الدين الريس، النظريات السياسية الإسلامية، ط٦، دار التراث، القاهرة.
١٢. محمد عمارة، تيارات الفكر الإسلامي، ط٢، دار الشروق، بيروت، ١٩٩٧.
١٣. محمد هاشم البطاط، الفكر السياسي عند الخوارج، رسالة ماجستير، كلية العلوم السياسية، جامعة بغداد، ٢٠١٠.

ثانيا: مواقع الانترنيت:-

١٤. الاصلاح الفكري والعقائدي عند الإمام الباقر عليه السلام، شبكة معلومات دولية:
https://goo.gl/CKs8TC .
١٥. الإمام الباقر عليه السلام رائد النهضة الإسلامية والفكر الاصيل، موقع قناة العالم، شبكة معلومات دولية:
https://goo.gl/xDpobE .

١٦. الإمام الباقر عليه السلام والإصلاح في الأمة، شبكة معلومات دولية :
https://goo.gl/wtHjYY .
١٧. الإمام الباقر عليه السلام والإصلاح في الأمّة، شبكة المعارف، شبكة معلومات دولية:
https://goo.gl/o4qCkR .
١٨. حسين ابراهيم الحاج حسن، معالم مشعة من حياة الإمام الباقر: شبكة معلومات دولية :
https://goo.gl/u7frRp .
١٩. دروس في الإمام الباقر عليه السلام، شبكة معلومات دولية:
https://goo.gl/bF6c2V .
٢٠. شبكة الإمامين الحسنيين عليهما السلام للتراث والفكر الإسلامي ، شبكة معلومات دولية:
https://goo.gl/gxGirX .
٢١. شبكة معلومات دولية:
https://goo.gl/R8Cnj5
٢٢. شبكة معلومات دولية:
https://goo.gl/XR7afh
٢٣. شبكة معلومات دولية:
https://goo.gl/R6djAu
٢٤. المجلسي، بحار الأنوار، ج٤٦، ص ٣٥٤. نقلا عن: شبكة معلومات دولية:
https://goo.gl/R6djAu
٢٥. محاور الحركة الإصلاحية العامّة للإمام الباقر عليه السلام، شبكة معلومات دولية:
https://goo.gl/wcKRSv
٢٦. محاور الحركة الإصلاحية العامّة للإمام الباقر عليه السلام، شبكة معلومات دولية:
https://goo.gl/XR7afh